تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

الرادفة: ردَف يردُف وردِف يردَف رَدْفًا: تبِعه. (الأقرب) . فالرادفة: ما يأتي وراء شيء آخر.

التفسير: في بعض الأحيان تجد شخصا متحمسًا جدًّا إلى القتال، ويدعي أنه سيفعل كذا وكذا في الحرب، ولكن يفقد حماسه ويجلس صامتًا بمجرد أن يتلقى لطمة واحدة. كذلك يظن البعض أنه من الأبطال الشجعان، ولكن حقيقة شجاعته تنكشف عند الاختبار، ويعرف الجميع أن دعاويه لم تكن إلا مجرد هراء. وقد حكيت لكم مرارًا أن شخصًا كان يظن أنه من كبار الشجعان، فذهب إلى وَشّامٍ وطلب منه رسم صورة الأسد على ساعده. ولما وخزه الوشّام بالإبرة صرخ وقال: ماذا تصنع؟ قال أرسم إحدى أُذنَي الأسد. قال ألا يستطيع الأسد أن يعيش بدونها؟ قال نعم. قال فلا ترسم الأذن وارسم عضوًا آخر. فلما وخزه مرة أخرى صرخ وقال له: ماذا تصنع الآن؟ قال أرسم أذنا أخرى للأسد. فقال: ألا يمكن أن يعيش الأسد بدونها؟ قال: نعم، يعيش. قال دَعْك من هذه الأذن أيضًا وارسم عضوًا آخر له. فلم يزل الرجل يمنعه في كل مرة حتى وضع الوشّام الإبرة وقال: لا أستطيع أن أوشم الآن أي شيء. إذًا، فهناك كثير من الناس الذين يدّعون الشجاعة كثيرًا، وينكشف عند الامتحان أنهم جبناء جدًّا. ولكن الله تعالى يقول هنا: تتبعها الرادفة.. أي أن المسلمين إذا حملوا السيف مرة فلن يضعوه من أيديهم، بل يخوضون حربا بعد حرب، ويشنون غارة تلو غارة غير خائفين، بل ستستمر هذه الحروب على التوالي ولن يضعوا السلاح حتى يأتي الفتح المبين.

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٩﴾

واجفة: وجَف يجِف وَجْفًا ووجيفًا ووُجوفًا: اضطربَ. ووجَف القلب وجيفًا: أي خفَق. ووجَف الفرسُ والبعير: عدا وسارَ العَنَقَ. (الأقرب).

التفسير: لقد بيّنتُ في تفسير سورة (النبأ) أن الله تعالى يتحدث فيها عن غلبة القرآن وغلبة الإسلام ووجود القيامة معًا، ويقدّم غلبة الإسلام دليلا على الحياة بعد الموت.. أي ما دام الله تعالى سيُحدث هذا الانقلاب العظيم في الدنيا، فلم لا توقنون أنه قادر على أن يهب الحياة بعد الموت؟ والآية قيد التفسير تتناول الموضوع نفسه.. أي عندما تقع هذه الأحداث ويهلك صناديد الكفار ويصبح المسلمون غالبين على الكافرين، تساور الشبهات قلوبهم فيقولون في أنفسهم: لعل القيامة آتية! لأن أحد الأمرين قد تحقق، فلعل الأمر الآخر المنوط به سيتحقق أيضًا؛ فيستولي القلق والذعر على الكافرين، وتظهر علامات هزيمتهم حتى تتولد في قلوبهم شبهات حول القيامة فيقولون: ربما ستأتي القيامة أيضًا التي يتحدث عنها المسلمون.

أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

خاشعة: خَشَع ببصره: غَضَّه. وخشَع بصرُه: انكسر. وفي "النهاية": الخشوع في الصوتِ والبصرِ كالخضوع في البدن. (الأقرب)

التفسير: الضمير في قوله تعالى ﴿أبصارها﴾ يعود إلى القلوب الواجفة.

وهنا ينشأ سؤال: كيف قيل هنا ﴿أبصارها﴾ مع أن القلوب ليس لها عيون؟ والجواب أن المراد هنا أبصارُ أصحاب هذه القلوب كما هو ظاهر من الآية التالية: ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾.

وهنا ينشأ سؤال آخر: فلماذا جيء هنا بضمير المؤنث (ها) ما دام المقصود أصحاب هذه القلوب؟ والجواب: جيءَ بالضمير مؤنثًا بسبب إضافة الأبصار إلى القلوب التي يُقصد منها أصحابها، ومثاله قوله تعالى ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾(البقرة:٧٠). فمن قواعد العربية أن اللفظ المضاف إلى المذكر أو المؤنث يُعامَل أحيانًا بحسب المضاف إليه في تذكيره وتأنيثه.

والأبصار جمعُ بصر، والبصرُ هو حاسّةُ الرؤية؛ والعينُ؛ والعلمُ (الأقرب). فلو أُريدَ بالأبصار العيون المادية، فالمراد أن قلوبًا ترتجف من شدة الذعر يومئذ، وأصحابها سيغضّون أبصارهم خجلاً وندمًا، لأن ما قاله محمد ﷺ قد تحقق. فينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾، وعندها لن يستطيعوا رفع أبصارهم أمام أحد خجلاً وندمًا، وستساور الشبهات قلوبهم حول عقيدتهم عن القيامة، ويقولون لعل خبر القيامة يكون صحيحًا كما صحَّ هذا النبأ.

أما إذا فسّرنا الأبصار بمعنى الإدراك -وضمير الإدراك يمكن أن يرجع إلى القلوب أيضًا- فالمعنى أن حاسة الإدراك الموجودة في أفئدتهم ستتعطلّ وترتجف، ويدرك أصحابها أن بصيرتهم أخطأتْ وعلومهم بارتْ، ودعاوي علمهم وفهمهم بطلتْ.

يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

الحافرة: مؤنث الحافرِ؛ والخِلقة الأولى. يقال رجَع على حافرته وفي حافرته: أي في طريقه التي جاء فيها. ورجَع في حافرته: شاخَ وهرِم. ورجَع على حافرته: يقال أيضًا لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه. (الأقرب)

التفسير: أي عندما تتحقق نبوءة من أنباء القرآن أمام الكافرين ترتجف قلوبهم فيقولون في أنفسهم: لقد تحقق هذا الأمر، فلعل النبأ عن الحياة بعد الموت سيتحقق أيضا؟ أي سينشأ هذا السؤال في قلوبهم تلقائيا، أو سيقول بعضهم لبعض لقد تحقق هذا النبأ، فهل نستنتج من هذا أن القيامة أيضا حقّ؟ إذنْ فإننا في خسران كبير.

أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١٢﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

عظامًا نَخرةً: نَخِرَ العظمُ: بَلِيَ وتفتَّتَ. (الأقرب) فالعظام النخرة: البالية المتفتتة.

كَرَّةٌ: الكَرّةُ: العودة. والكَرّة الخاسرة: العودة الضارة.

التفسير: السؤال هنا للاستعجاب لا للإنكار، والمعنى: سيقول الكافرون فيما بينهم عجبًا: لقد كان المسلمون يقولون إن الله يحيي العظام ثانية وهي رميم، ولقد تحقق أحد الأمرين، فقد يتحقق الثاني أيضا، وتكون عقيدة البعث بعد الموت صحيحة. أما قوله تعالى ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ فيعني أن الكافرين يقولون إنه لو وقع الأمر الآخر أيضا فسيكونون في خسران مبين عند عودتهم إلى الحياة ثانية، لأن محمدا قد أنبأ عن قيامتين؛ إحداهما غلبته، والثانية تلك التي يُعرض فيها كل إنسان على ربه بعد الموت ليحاسَب على أعماله. لقد أنكرنا القيامتين كلتيهما وقلنا لا نؤمن بما تقول، بل ننكر ما تقول، وحاربناه ساعين بكل ما أوتينا للقضاء عليه، ولكنا كلما حاربناه كُسرت هاماتنا، ورجعنا خائبين صاغرين. ثم جمعنا القبائل كلها لإسقاط محمد (ﷺ) وإفشاله، فكان مآلنا الخيبة والخسران. فما دمنا قد هلكنا هنا في اليوم الموعود رغم أخذنا بالأسباب كلها، فكيف يكون مصيرنا في اليوم الذي لم نُعدّ له عُدّة؟ فلو تحقق نَبَؤُه عن الآخرة لكنا خاسرين؛ إذ لم نعدّ لها أي عُدّة.

لقد ذكر الله تعالى هنا الآخرة ليبين أنه يتحدث عن غلبة رسوله وعن يوم القيامة في وقت واحد. يقول عندما يتحقق أحد الأمرين سيستنتج منه الكافرون بأنفسهم بأن الأمر الثاني الذي وُعدنا به سيتحقق أيضًا، وسنكون عندها من الخاسرين جدا؛ إذ لم نعدّ لذلك اليوم عدة. وبعد بيان هذا المعنى يعود الحديث إلى الموضوع الأساس ثانية.

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

زَجْرة: زَجَرَه عن كذا زَجْرًا: منَعه ونهاه. ويقال أصلُ الزجر الطردُ مع صوت، يقولون: زجَر البعير: صاح به يسوقه. وزجرت الناقةُ بما في بطنها: رمتْ به. وزجَر الطيرَ: تفاءلَ به فتطيّرَ، فنهَره. يقال فلان يزجر الطيرَ: أي يعافها، وهو أن يرمي الطائرَ بحصاة أو أن يصيح به، فإنْ ولاّه في طيرانه ميامنةً تفاءلَ به، وإن ولاّه مياسرةً تطيَّرَ منه. (الأقرب)

فالمراد من قوله تعالى ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي الدفع دفعة واحدة أو السوق سوقة واحدة.

التفسير: أي لقد قلنا لكم ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۞ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾، ولما أريناكم نموذجًا واحدا من ذلك، طارت حواسكم وارتجفت قلوبكم، واعلموا أن قولنا ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ لم يتحقق بعد؛ حيث نسوقكم إلى مواطن القتال مرارا. الواقع أن قول الله تعالى هذا يماثله قول الشاعر بالأردية بما معناه: ما هي إلا بداية العشق، ومع ذلك أخذت في البكاء؟ عليك أن تتوقع الكثير مثله مستقبلا. إذًا، يقول تعالى للكافرين: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾.. أي أن هذا العذاب إنما هو حلقة أولى في سلسلة طويلة من العذاب، ومع ذلك انهارت هممكم برؤيته. والحق أننا سنسوقكم مع رؤسائكم إلى القتال مرارًا وستلقون على أيدي المسلمين هزيمة تلو أخرى.

الواقع أن الله تعالى قد رسم بقوله ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ مشهد معركة بدر؛ إذ لم يكن المسلمون ولا الكفار يريدون القتال، إنما خرج المسلمون من المدينة لأنهم علموا أن قافلة تجارية لقريش قادمة من الشام. وكانت قافلة غير عادية، وكان لكل قرشيّ – ذَكَرٍ أو أنثى – سهمٌ فيها، مما يدل على أن رؤساء قريش كانوا يريدون أن ينفقوا أرباحهم من هذه التجارة في محاربة المسلمين. والثابت تاريخيًا أنهم قد أنفقوا أرباحهم هذه للاستعداد لمعركة أحد. (طبقات ابن سعد، المجلد الثاني، غزوة رسول الله ﷺ أُحدًا). فبالإضافة إلى أن قريش كلهم كانوا في حرب مع المسلمين، فإنهم ما برحوا ينسجون خططًا لمحاربة المسلمين بالمال الذي كانوا يكسبونه بالتجارة غالبا.

وثانيًا– لقد علم المسلمون أن قريشًا قد خرجوا بجيش لاستقبال قافلتهم التجارية، فخرج المسلمون ليُظهروا للعدو أنهم لا يخافونه، ولكنهم لم يعلموا بشكل قاطع أنهم سيشتبكون مع الكافرين في حرب.

فبما أن أرباح هذه التجارة كانت ستُنفَق في محاربة المسلمين من ناحية، ومن ناحية أخرى كان أهل مكة قد خرجوا بجيش ليزيلوا هيبة المسلمين في تلك المنطقة، فخرج الرسول ﷺ بصحابته لكي لا يرتعب أهل المنطقة من الكافرين.

لا شك أن الرسول ﷺ كان قد تلقى من الله تعالى إشارات بنشوب الحرب ضد الكفار، ولكن لم يتضح له أن هذا هو أوانها، فلما خرج بالجيش أخبره الله بالوحي بأن الحرب ستقع الآن، ولكن ليس ضد القافلة التجارية، بل ضد الجيش الذي أتى لحمايتها. بيد أن الله تعالى قد نهاه عن كشف هذا الأمر لأصحابه فورًا. فقال ﷺ لأصحابه لما اقترب من ميدان بدر: لله الأمر فيما إذا كنا سنصطدم مع القافلة أم بالجيش. فقال الصحابة: يا رسول الله، إننا مستعدون لمواجهة العدو في كل حال، و لم يخطر ببالهم حتى ذلك الوقت أنهم سيشتبكون مع جيش الكافرين لا مع القافلة. ووصل الرسول ﷺ ميدان بدر فوجد هناك جيش الكافرين، فقال لأصحابه: ماذا ترون الآن؟ فقالوا: يا رسول الله، إنا مستعدّون للقتال. ولهذا السبب لم يشترك في معركة بدر إلا ثلاثمائة وثلاثة عشر صحابيا، مع أن عدد المسلمين كان أكثر من ذلك بكثير. لقد جاءوا مع الرسول ﷺ بعدد قليل لأنهم ظنوا أنهم لن يشتبكوا مع جيش الكافرين. ولكنهم حين واجهوا جيشهم بدلاً من القافلة التجارية قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، نبني لك عريشًا في مكان محفوظ ونربط عنده نُوقًا قوية سريعة، فلو قُتلنا في الحرب ركبتَها لتلحق بإخواننا في المدينة الذين ليسوا أقلَّ منا إخلاصًا وولاء وتضحية في سبيل الدين. وإنهم لم يخرجوا معنا لأنهم لم يتوقعوا اندلاع الحرب؛ فلو التحقتَ بهم خرجتَ لمحاربة الكافرين مرة أخرى.

أما جيش الكافرين فإنهم لما سمعوا أن قافلتهم التجارية قد نجت من هجوم المسلمين، فقال أبو جهل وغيره من الزعماء: تعالوا نأكل ونشرب بعض الوقت احتفالاً بفشل المسلمين في مهاجمة القافلة. فالواقع أن الكافرين أيضًا لم يجتمعوا هناك بنيّة القتال، إنما أرادوا أن يحتفلوا هناك ليأكلوا الولائم وليشربوا الخمور وليرعبوا أهل المنطقة، ظانين أن المسلمين لن يجرؤوا على التصدي لهم؛ أما المسلمون فلم يخرجوا موقنين بنشوب القتال، ولكن الله تعالى بحكمته قد جمع الفريقين وجهًا لوجه في مقام واحد. وقد ذكر الله تعالى هذا الأمر في مكان آخر من القرآن الكريم حيث قال: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ

عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(الأنفال:٤٣).. أي تَذكَّروا حين أخرجنا الفريقين بتدبير منا، فما كنتم لتّتفقوا مع الكفار على موعد الخروج. فلم يكن هناك أي سبب للحرب بالنسبة إلى الكافرين، إذ كانوا يريدون حماية القافلة التجارية، ليبيعوا ما أتت به من بضائع وسِلَع ويربحوا الأموال، كما لم يكن المسلمون يريدون أي قتال، وإنما قد جعل الله تعالى الطرفين وجهًا لوجه في مكان واحد للقتال.

فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

الساهرة: ورد في المفردات: "الساهرةُ قيل: وجهُ الأرض". وورد في أقرب الموارد: "الساهرة: وجهُ الأرض، وقيل: الفلاة."

التفسير: أي حينما نسوق هؤلاء الكافرين لمواجهة المسلمين مرة واحدة سيُفضَحون كليةً، ويتبع ذلك ما هو أدهى وأمرّ. وما دام الحادث الواحد سيزعزع عقيدتهم عن القيامة، فما بالك إذا تبعتها الرادفة؟ أي حين يُساقون لحرب المسلمين مرة بعد أخرى.

هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾

التفسير: يبيّن الله تعالى هنا للكافرين أنه عندما تقع هذه الأحداث ستقولون مخادعين أنفسكم إنها محض صدفة. مع أنه لا يحق لكم أن تسموها صدفة، إذ قد وقعت أحداث مماثلة في زمن الأنبياء السابقين، وأمامكم أمثلة كثيرة منها، فكيف ترفضون هذه الشهادات التاريخية كلها بحجة أنها مصادفة؟ إن هذه ليست أول نبوءة أدلى بها أمامكم محمد ﷺ، بل هنالك نبوءات عديدة قد تنبأ بها وقد شاهدتم تحقُّقها، فإذا كنتم تصرون أنها مصادفات، فنقدّم أمامكم مثالا آخر، وهو قوله

تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۞ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾. والطُّوى: اسمُ واد في الشام، وقال بعضهم: هو الشيء المُثنى. (الأقرب)

هناك نقطة رائعة في هذه الآية وهي أن موسى عليه السلام حين لقي ربه عز وجل كان في وادٍ طوى، أي في وادٍ منعطف، أما نبينا ﷺ فقد رسم الله تعالى مشهد لقائه معه في قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾(النجم:٩-١٠).. أي كان الأمر كأنه قد رأى الله وهو واقف أمامه تعالى كما يكون وترَ قوسَين أو أقربَ من ذلك. والبديهي أن الواقف في وادٍ طوى منعطف لا يمكن أن يرى الله تعالى كما يراه تعالى من يقف كوترِ قوسين؛ فمثلا لا يمكن للشخص الواقف في النقطة (أ) في الرسم التالي أن يرى الشخصَ الواقف في النقطة (ب).

أ

ب

ولكن الذي يقف في النقطة (أ) في الرسم التالي يستطيع أن يرى الشخصَ الواقف في النقطة (ب).

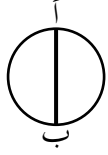

الواقع أن هذه الآية كانت إشارة إلى أن أُمة موسى عليه السلام لن ترى الله تعالى، ولكن أتباع النبي محمد ﷺ يبلغون الذروة في الروحانية فيتمتعون برؤية الله وكأنه أمامهم؛ لأن الشخصَين الواقفَين في حالة قاب قوسين يرى أحدهما الآخر، ولكن الشخصين الواقفين في الرسم الأول (الوادي الطوى المنعطف) لا يستطيع الواحد رؤية الآخر، لأن العبد يبقى في زاوية، والله في زاوية أخرى.

ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٨﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٩﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

تَزَكَّى: أصلُه تتزكّى، وتزكّى: فلان صار زكيًّا. (الأقرب)

التفسير: قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾.. أي هل لك رغبة في أن تتزكى؟ وهذا الأسلوب في الكلام يشبهه قولنا في الهند هل لك رغبة في "البان"* حين يدعو أحدنا الآخر لتناوله. فالله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون ويقول له: هل لك رغبةٌ في التزكي حتى أدلّك على بعض الأمور، وأهديك إلى ربك فتتولد في قلبك خشية الله؟

فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٢١﴾

التفسير: اعلم أن القرآن الكريم يحذف تفاصيل غير ضرورية. فهنا، مثلاً، لما قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۞ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾؟ أعرض عنه وقال: لا أرغب في هذه الأمور، فلا حاجة لذكرها، ثم جرى بينهما حديث طويل أدى إلى أن يُرِيَه الله الآية الكبرى؛ ولكن الله تعالى لم يذكر كل هذه الأمور، لأنها مفهومة من السياق.

وهنا ينشأ سؤال: ما هي الآية التي أراها اللهُ فرعونَ على يد موسى واعتبرها الآية الكبرى؟ فإن الله تعالى قد أراه آيات كثيرة، إذ ورد في آية أخرى أنه تعالى أعطى

* "البان" اسم شجرة في الهند يلفّون في ورقها بعض البهارات مثل الهيل وغيره مع حلويات معطرة، ويضعونها في الفم، فتنظف الفم وتعطره، كما تفرّح القلب. *(المترجم)*

موسى ﴿تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾(الإسراء: ١٠٢). وكذلك قال تعالى عن فرعون ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾(طه: ٥٧)

والجواب أن الآية التي أراها موسى عليه السلام فرعونَ عندئذ هي آية العصا، كما يتضح من سورة طه، وهذه السورة (النازعات) أيضًا تتحدث عن أول لقاء بين فرعون وموسى. إذًا، فالآية الكبرى هي آية العصا. وإن القرآن الكريم أيضًا يذكر معجزة العصا مرة بعد أخرى. لا شك أن معجزة اليد البيضاء أيضًا قد ظهرت مرارًا، ولكنها ظهرت دائمًا بعد معجزة العصا. فمثلاً لما شرّف الله تعالى موسى عليه السلام بالنبوة أراه معجزة العصا أولاً ثم اليد البيضاء. والمعجزة التي أظهرها الله تعالى أمام فرعون على يد موسى في مواجهة السحرة هي معجزة العصا أيضًا. وعندما عبر موسى عليه السلام مع بني إسرائيل اليمَّ ضرب الماءَ بالعصا أيضا. ولما احتاج بنو إسرائيل إلى الماء احتياجًا شديدًا ضرب عندها الصخرة بالعصا. فثبت أن هناك عدة آيات تتعلق بالعصا.

ويظهر مما ورد في التوراة أن الآية التي أراها موسى في اليوم الأول هي آية العصا، حيث ورد: "وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ قَائلاً: إِذَا كَلَّمَكُمَا فِرْعَوْنُ قَائلاً: هَاتِيَا عَجِيبَةً، تَقُولُ لِهَارُونَ: خُذْ عَصَاكَ وَاطْرَحْهَا أَمَامَ فِرْعَوْنَ فَتَصِيرَ ثُعْبَانًا. فَدَخَلَ مُوسَى وَهَارُونُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَفَعَلاَ هكَذَا كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ: طَرَحَ هَارُونُ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ عَبِيدِهِ، فَصَارَتْ ثُعْبَانًا." (الخروج ٧ : ٨-١٠)

ثم إن السحر الذي أراد السحرةُ أن يأتوا به عند مواجهة موسى عليه السلام كان أيضًا ذا علاقة بالعصيّ، مما يدل على أن أعداءه عليه السلام كانوا معترفين بأهمية معجزة العصا. لا شك أن التوراة ذكرت أن السحرة أروْا معجزة الدم، ولكن القرآن لم يذكرها؛ لأن المعجزة الأساسية التي أراها الله تعالى فرعونَ وأصحابَه هي معجزة العصا، أما المعجزات الأخرى فهي تابعة لها.

فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٣﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٤﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٥﴾

التفسير: يخبر الله تعالى هنا أن فرعون كذّب وعصى رغم رؤيته الآية الكبرى، ثم ولّى يسعى جاهدًا في معارضة موسى وتدميره، علمًا أن السعي هنا ليس بمعنى الجري بالأقدام، وإنما بمعنى الجري بالأعمال.

ثم يقول الله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾.. أي أن فرعون بعث رجالاً إلى كبار القوم ليجتمعوا في يوم معين، ثم نادى بين عامة الناس أن يجتمعوا في ذلك اليوم؛ ذلك لأن هنالك أسلوبين لجمع القوم؛ الأول يتعلق بعلية القوم الذين تبعث لهم رسائل أو رجال، والثاني يتعلق بعامة الناس الذين ينادَى بهم للاجتماع في الموعد المحدد. فلما اجتمعوا قال لهم فرعون أنا ربكم الأعلى وهذا الشخص يتآمر عليكم، فاتّحِدوا ضدّه.

فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

نَكال: نكَل بفلان: صنَع به صنيعًا يحذُر غيره إذا رآه. (الأقرب)

التفسير: إن قوله تعالى ﴿نَكَالَ الآخِرَةِ﴾ إما هو مفعول له أو مفعول مطلق، لأن النكال بالمرء يعني البطش به، فالمراد أن الله تعالى أخذ فرعونَ – كما حذّره موسى عليه السلام – ليدمّره ويلقيه في عذاب الآخرة وعذاب الحياة الدنيا، أو المعنى أنه تعالى أخذه أخذًا شديدا من حيث الآخرة أو من حيث الدنيا.

والحق أن الله تعالى قد أشار بهذا الحادث إلى نفس الأمر المتعلق بغلبة الإسلام.. حيث بيّن أن انتصار موسى عليه السلام على فرعون لم يحقّق نبوءة غلبته فحسب، بل دلّ على وجود يوم القيامة أيضا، لأن هاتين النبوءتين كانتا متلازمتين، فما دامت

إحداهما قد تحققت رغم الظروف غير المواتية، جاز لنا القول إن الأخرى أيضا ستتحقق يوما ما.

والحق أن أوّل مهمّة يقوم بها أي نبي في الدنيا هي أن ينشئ في القلوب الإيمانَ بالله تعالى ثم اليقينَ بيوم القيامة، ولذلك يربط النبي نبوءةَ نجاحه وغلبته بيوم القيامة دائمًا.. ويقول: سأنتصر عليكم يومًا رغم الظروف غير المواتية، وستكون غلبتي دليلا على أن ما أقول لكم عن يوم القيامة سيتحقق يومًا ما؛ ذلك لأن مهمتي إحياء الأرواح الميتة، وهي مهمة تبدو مستحيلة في الظاهر، لكن لو أصبح هذا المستحيل ممكنًا، وأُعيدَ هؤلاء الموتى روحانيًا إلى الحياة، وتيسرت لهم هذه الحياة الروحانية، فلا بد لكم أن توقنوا أن ما يقال لكم عن الحياة في الآخرة حق وصدق؛ ذلك لأن الأرواح الميتة إذا أمكن إحياؤها في هذه الدنيا، فإحياء الموتى في الآخرة ممكن حتمًا، وبعد رؤية هذا المشهد يسهل على كل امرئ الإيمانُ بيوم القيامة، حيث يدرك أن الله إذا كان قادرًا على بعث الناس روحانيًّا في هذه الدنيا فإنه يقدر على إحياء الموتى في الآخرة أيضًا. ولذلك قال الله تعالى هنا ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾.. أي أن الله تعالى أخذه ليعذّبه في الآخرة ويعذّبه في الدنيا أيضا.

ومن الملاحظ أن الله تعالى لم يقل هنا: فيأخذه الله نكال الآخرة، بل قال ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ﴾.. أي أخذه الله تعالى ليعذّبه عذاب الآخرة، وليس المقصود من هذا الأسلوب – أعني استعمال صيغة الماضي مكان المضارع – إلا البيان أن عذابه في الحياة الأولى أصبح دليلا على أنه تعالى سيبعثه بعد الموت ليعذّبه عذابَ الآخرة، ولذلك قدم الله تعالى هنا ذكر نكال الآخرة على عذاب الأُولى، منبِّهًا أن عذاب الأولى أصبح دليلا على أن فرعون سيبعث بعد الموت لينال عذاب الآخرة أيضا.

إذًا، فقد بيّن الله تعالى بذكر عذاب فرعون أن غلبة محمد ﷺ ليست أول مثال في التاريخ حتى تعتبروه مصادفة، بل هذا ما حدث دائما. فكلما جاء نبي من عند الله تعالى نال الغلبة رغم الظروف المستحيلة. لم يكن عنده أسباب من قوة ومال وجماعة، ومع ذلك كتب الله له الغلبة، وأحيا القوم على يده؛ وكان الإحياء الروحاني في الدنيا رغم الظروف غير الملائمة دليلاً على أنه لا بد من إحياء بعد

الموت أيضا، ويبعث الله الناس جميعًا مرة أخرى. فإن الله الذي قام بإحياء القلوب والأرواح الميتة في هذه الدنيا في ظروف غير مناسبة كيف لا يكون قادرا على إحياء الأجساد الميتة في ظروف تبدو مستحيلة في الظاهر؟

وهناك سؤال هامّ جدًّا يثيره المفكّرون في هذه الأيام وهو: لا يصحّ - منطقيًّا - استنتاجُ شيء من شيء دونما رابط بينهما؛ فمثلا لو وصفنا شخصا بأنه عالم كبير، فلا يعني ذلك بالضرورة أنه قادر أيضًا على أن يصنع كرسيًا أو مخدة. فلو أثبتّم أن الله تعالى قد أنبأ عن بعض الأمور الغيبية التي تحققت أيضا، فإنما نستنتج من ذلك أن هذه الأنباء قد تمّ الإدلاء بها وقد تحققت فعلاً، ولكن كيف يجوز أن نستنتج من ذلك وجودَ القيامة؟ إذ لا علاقة ولا رابط بين الأمرين.

والحق أن دليلهم هذا هام، ولا نستطيع رفض موقفهم إلى هذا الحد؛ إذ نسلّم نحن أيضا أن وجود صفة في شيء لا يدل بالضرورة على وجود صفة أخرى ما لم تكونا من قبيل اللازم والملزوم أو السابق والمسبوق أو السبب والمسبّب، أعني أنه إذا وجدت إحداهما فلا بد من وجود الأخرى، وعندها يمكن الاستدلال بإحداهما على الأخرى، أو أن تكونا متشابهتين بحيث يكفي وجود إحداهما لنوقن بوجود الأخرى. لا شك أن كون أحد عالِمًا لا يعني بالضرورة كونه قادرًا على صنع كرسي أو مخدة، فإن مثل هذا القول حماقة؛ إذ لا علاقة بين الأمرين، ولكن إذا قرأ علينا شخص كتابًا باللغة الإنجليزية، فيمكننا الاستنتاج أنه يقدر على قراءة كتاب آخر بتلك اللغة؛ وإذا اعترض البعض على استنتاجنا هذا، فلا بد أن يضحك عليه الجميع ويقولوا: إنه استنتاج صحيح وطبيعي، لا بأس به وليس فيه ما يخالف العقل. أو إذا كان المرء قادرا على قراءة كتاب باللغة الأردية، فيمكننا أن نستنتج من ذلك قدرته على قراءة كتاب آخر بتلك اللغة، ولا بأس بهذا الاستنتاج، إذ يوجد بين الأمرين مشابهة يستحيل بعدها علينا إنكار الأمر الثاني بعد وجود الأمر الأول.

والآن نبحث عن وجوه التشابه بين القيامة وهذه الدنيا. فأول ما يشبه من هذه الدنيا بالقيامة هو صفة الخَلْق الإلهية؛ وإذا ثبت أن الله خلق الأشياء في الماضي أو يخلقها الآن، فلا بد من الاعتراف أن الذي خلق أول مرة قادرٌ على أن يخلق مرة

أخرى. كل ما في الأمر أن نفحص ما إذا كان قد أعلن أنه سيخلق مرة ثانية أم لا. فإذا كان قد أعلن أنه سيخلق مرة أخرى، فقد حُسم الأمر، ولا مناص من الاعتراف بأن الله الذي خلق أول مرة قادرٌ على أن يخلق مرة أخرى. وحيث إن الخَلق مشابه للقيامة، فلو أثبتنا أن الله تعالى يخلق الأشياء في هذه الدنيا، لكان هذا دليلا على صحة عقيدة القيامة أيضا.

والأمر الثاني هو خَلقٌ آخر روحاني، فإذا وُجد في الدنيا خَلقٌ آخر روحاني مستبعَد محيِّر مشابه للخلق المادي.. فلا بدّ أن نصدّق الله تعالى في قوله إنه قادر على أن يخلق يوم القيامة خلقًا جديدًا مشابهًا، إذ قد أكّد بالفعل قدرتَه على مثل هذا الخلق في الدنيا، فما دام تعالى قد أثبت قدرته وقوته وجلاله في هذه الدنيا نفسها من خلال خَلق آخر مشابه، فلا بد من الإيمان أن هذا الإله القادر القوي صادق في قوله إنه سيخلق خلقًا آخر في الآخرة؛ إذ لا حاجة له إلى الكذب وهو يملك هذه القدرة والقوة.

والأمر الثالث هو العلم التام، فإذا ثبت أن الله يملك العلم التام، حُلَّت القضية وحسمت؛ لأن الذي عنده علم كامل بصنع شيء، لا بد أن يقدر على صنعه في أي وقت شاء. لقد كتب المسيح الموعود عليه السلام أن الناس يسألون كيف خلق الله هذا الكون، فقال: لو تيسَّر لكم العلم التام عن خلقه، لم يبق بينكم وبين الله فرق؛ إذ ستبدأون – مثله ﷻ – في خلق السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم. فالذي يعلم كيف تُصنَع الطاولة أو الكرسي، وكيف تُستعمل المطرقة والقدّوم، سيصنعهما بدون صعوبة. (سرمه جشم آريه – كحل عيون الآريه الهندوس – الخزائن الروحانية المجلد ٢ ص ٢٢٩ و ٢٦٣ و٢٦٩)

إذًا، فإذا ثبت أن الله تعالى عنده علم تامّ بالمخلوقات، فالزعم أنه لا يقدر على إحيائهم أو خلقِهم ثانية ليس إلا ضربًا من الجنون.

هذه ثلاثة أمور لا بد منها لإثبات يوم القيامة، وهي تشكّل معًا الدليلَ على وجود القيامة.. أي أن نُثبِت أن الله تعالى قد خلق كل ما في الدنيا من مخلوقات، فنستنتج

من ذلك أنه تعالى ما دام قادرًا على خلقها في الدنيا، فهو قادر على خلقها في الآخرة.

ثم نثبت أنه قادر على أن يقوم في الدنيا بإحياء مماثل للإحياء الذي يتم في الآخرة، فإذا أثبتنا ذلك، فلا بد من الاعتراف أنه قادر على إحياء مماثل في الآخرة.

ثم نثبت أن الله تعالى عنده علم تام بالمخلوقات، وإذا أثبتنا ذلك فلا مناص من الإيمان بوجود القيامة أيضًا؛ لأن الذي عنده علم تام بجزئيات المخلوقات ودقائقها فلا بد أن يكون قادرا على خلقها ثانية.

فكما قلت إن هذه هي الأمور الثلاثة التي تشكّل معًا الدليلَ على وجود القيامة، وهي التي قد ذكرها القرآن مجتمعةً على الدوام، ردًّا على منكري يوم القيامة. لذلك إنا لا نقول إن تحقُّقَ نبوءةٍ أنبأ الله بها سابقًا دليلٌ على وجود القيامة. إننا نعترف أن هذا القول وحده لا يكفي دليلا على وجود القيامة. فلو قيل – مثلاً – إن انتصار فلان في قضية أو ولادة ابن في بيته بحسب نبوءةٍ لدليلٌ على وجود القيامة، فنقول إنه ليس دليلا عليها، لأن نجاحه في القضية أو ولادة الابن عنده لا يعني بالضرورة وجود القيامة، لأن هذه الأمور ليست متلازمة وليس لها علاقة مباشرة بالقيامة. إن ما نقوله هو: إن الله تعالى قد خلق الخلائق، ومَن قدر على خَلْقها مرة قادرٌ على خلقها مرة أخرى. ونقول أيضا: إن الله تعالى يقوم في الدنيا بإحياء روحاني مشابه تمامًا بالخلق المادي، إذًا فلا بد أن يقدر على خلق جديد في الآخرة. ثم نقول أيضا: إن الله تعالى عنده علم تامّ ومطّلع على أسرار المخلوقات كلها؛ فكيف يصعب عليه الخَلق مرة أخرى؟ هذه هي طريقة الاستدلال التي اتّبعها القرآن الكريم دائمًا لإثبات يوم القيامة. ولا شك أنه فيما يتعلق بالكتب الأخرى فيمكن أن يقال عنها إنها لا تستدل على وجود القيامة كما ينبغي، ولكن لا يمكن توجيه هذا الاعتراض إلى القرآن؛ لأنه كلما تحدث عن يوم القيامة قدّم الخَلق الأول دليلاً عليها. فقيل: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أجاب الله تعالى بقوله ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ۞ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى

وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾(يس:٧٩-٨٢). فترى أنه تعالى قد قدّم هنا خَلْقه الأول وعلمه التام دليلاً على وجود القيامة، وأخبر أن الذي خلَق أول مرة، والذي عنده العلم التام بالمخلوقات كلها، كيف لا يكون قادرًا على أن يخلق مرة ثانية؟ فكأن أول دليل يقدّمه الله على يوم القيامة هو تساؤله: مَن خلَق هذه المخلوقاتِ التي ترونها أمام أعينكم؟ فما دام الله تعالى قد خلقها جميعا، فكيف تقولون إنه غير قادر على خلقها ثانية؟

والدليل الثاني الذي قدّمه الله على وجود القيامة هو تلك النشأة الروحانية التي تتمّ في الدنيا على يد أنبيائه، فقال إنه تعالى ما دام يحيي في الدنيا النفوسَ الميتة رغم الظروف غير الملائمة، فلا بد لكم من التسليم أنه قادر على أن يهب الناس الحياة في الآخرة، وأن هذه العملية ليست مستحيلة عنده.

والدليل الثالث الذي يقدمه الله تعالى هنا هو علمه الكامل، لأنه إذا تيسر لأحد علم كامل بشيء فلا يصعب عليه فعلُه. فمَن كان يَعلم صناعة الحلوى – وهي أن تأخذ شيئًا من الدقيق الخشن وتَقْليه في الزيت وتضيف إليه شيئًا من السكر والماء، وتتركه على النار بعض الوقت حتى ينضج – فإنه سيصنعها متى شاء من دون أي صعوبة. كذلك ما دام عند الله تعالى علم كامل بالمخلوقات وما دام مطلعًا على أسرار الكون كلها، فكيف يصعب عليه إحياء الموتى؟ إن الذي قد أحياهم أول مرة سيحييهم مرة أخرى.

باختصار، هذه أدلة ثلاثة يقدّمها الله تعالى على وجود القيامة، فلا يصح اعتراض البعض أن تحقُّق نبوءة غيبية لا يصلح لأن نستنتج منه صدقَ نبوءة أخرى. إنه يصح لو قيل إنّ تحقُّق نبأ غيبي يدل على صدق النبأ الغيبي الآخر، ولكنا لا نقول بذلك، إنما نقول إن قدرة الله على الخَلق في الدنيا، ثم إحياءه الموتى الروحانيين في الدنيا نفسها، ثم عِلمه التام بالمخلوقات.. كل هذا يشكّل دليلا على وجود القيامة. إنا لا نقول إن موت "ليكهرام" الهندوسي بحسب نبوءة للمسيح الموعود عليه السلام دليل على أن القيامة حق، ولا نقول إن ولادة ابن في بيته عليه السلام طبقًا لنبوءة له دليل على وجود القيامة. كلا، بل نستدل على وجود القيامة بهذه الأمور الثلاثة معًا التي

فصّلتُها آنفًا. ذلك أن هذه النبوءات التي تحققت إنما تدلّ على علم الله بجزئيات الأشياء فقط، وليس على علمه التام.. ولكن إذا ظهرت من عند الله تعالى صفة إحياء الموتى الروحانيين، لشكّلت دليلا على وجود القيامة بلا ريب، لأن هذا يقدم مثالا على عودة الحياة إلى الأرواح الميتة ببركة فيوض صحبة النبي وقوته القدسية، ويُجيز لنا القول إن الله الذي أحيا الأرواح الميتة في هذه الدنيا بهذه الطريقة قادرٌ على أن يحييها في الآخرة. والدليل الثاني هو دليل الخَلق، فإن الله الذي قدر على الخَلق مرة لا يصعب عليه خلق المخلوقات نفسها مرة أخرى. والدليل الثالث هو دليل العلم التام، فالله الذي عنده علم تام بالكون كله، والمطّلع على أسرار الخلائق كلها، لا يتعذر عليه خلق المخلوقات ثانية.

إذًا، فهذه هي الأدلّة الثلاثة التي يقدّمها القرآن الكريم على وجود يوم القيامة، والتي لا يقدر أحد على تفنيدها. فبرغم أن الاعتراض الذي تثيره طبقة المثقفين اليوم صحيح في حد ذاته، ولكنهم مخطئون في زعمهم أن القرآن الكريم أيضا يستدل على القيامة بهذا الأسلوب. نحن متفقون معهم تمامًا أن تحقُّق بعض النبوءات لا يصلح دليلا على يوم القيامة، ولكننا نبيّن لهم أنه إذا اجتمعت الأدلة الثلاثة المذكورة أعلاه أو أحدها لشكّل برهانًا قطعيًّا على وجود القيامة، لأنها متلازمة مع يوم القيامة، فإذا ثبت أي منها دلّ على يوم القيامة بالضرورة. فالاعتراض الذي يثيره المثقفون اليوم باطل تماما وهو ناجم عن عدم فهمهم للقرآن الكريم.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٧﴾

شرح الكلمات:

عِبرة: العبرةُ: الأصلُ الذي تُرَدّ إليه النظائر؛ والنظرُ في الأحوال؛ والعِظةُ يتّعظ بها، وجمعها عِبَرٌ. (الأقرب)

التفسير: العبرة هي ما يمكن أن يُتّخذ دليلا على الحياة الآخرة. هناك أمثلة عديدة عَرَضَ فيها الأنبياءُ الحياةَ الآخرة مع الإحياء الروحاني في الدنيا، وأكدوا الحياةَ

الآخرة بقيامهم بإحياء الموتى الروحانيين في ظروف غير مواتية. ولا بد للمرء أن يؤمن ويوقن بالحياة الآخرة برؤية هذا الإحياء الروحاني إذا كان قلبه عامرًا بخشية الله، خاليًا من التعصب والمكابرة. علمًا أن كلمة (العبرة) هي من العبور الذي معناه الانتقال من مكان إلى آخر. فالعبرة تعني استنتاج شيء من شيء آخر، وكأن العبرة، كالجسر، تعبر بالإنسان من طرف إلى آخر. يقول الله تعالى إن هذا الدليل أيضا مما يوجه العقل الإنساني إلى الاقتناع بأنه لا بد من القيامة بعد الموت.

ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٨﴾

التفسير: أي هل خَلْقُكم أصعب أم خَلْق السماء؟ ولا تعني السماء هنا السماء فقط، بل المراد منها النظام السماوي كله، حيث ذكر الله الأرض أيضًا، مبيّنًا أهمية خلق هذا النظام حيث قال بعد ذلك ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۞ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۞ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾. وهذا الشرح يتضمن الأجرام الفلكية ورِفعتها والجو والأرض كلها؛ فثبت أن السماء هنا بمعنى النظام السماوي الذي يضم الأرض أيضا، وليس السماء فقط التي هي مقابل الأرض.

فالله تعالى يقول هنا إن خلق الكون الذي نتحدث عنه الآن أهمُّ وأعقدُ من خَلْقكم.

الواقع أن الإنسان مخدوع بنفسه حيث يقول في نفسه كيف يمكن أن يكون نظام الكون والإنسانُ متشابهين؟ وكيف يكون أحدهما دليلاً على الآخر؟ إن الإنسان يملك العقل والذكاء الخارق وملكة التفكير والتدبر، ولكن الشمس والقمر وغيرها من الأجرام لا تملك عقلاً ولا تفكيرًا.

إذًا، يرى الإنسان أنه قد شُبِّه الأدنى بالأعلى في هذا الدليل، حيث تم الاستدلال هنا على الأدنى بالأعلى. ولكن ظنّه باطل، لأن الاستدلال بخلق الكون هو في الواقع استدلالٌ بالأعلى على الأدنى وليس العكس. وبتعبير آخر إنه استدلال بالأَولى.

الحق أن الإنسان يغترّ بنفسه ظنًّا منه أنه متفكر ومتدبر وذكي وفهيم، وأنه كائن مكتمل ونائب عن الله تعالى في الكون، ولذلك لا ينتقل ذهنه إلى بداية خلقه ولا إلى دليل السبب والمسبِّب حول عملية خَلقه، ولذلك يقدّم اللهُ للناس دائمًا نظام الكون كدليل على وجوده، فيقول: ألا تدركون برؤية نظام الكون الهائل يد خالقه؟ ألا ترون أن كل جزء من الكون بحاجة إلى آخر، وليس فيه شيء مستقلّ بذاته؟ العلماء يقولون بصدد خلق الكون إن الذرات اتصلت فيما بينها، واتصالها أدّى إلى خلق الكون بالتدريج. ونحن نقول: نسلّم بأن الكون خُلق من اتصال الذرات، ولكن كيف أدى اجتماعها إلى وجود كل ما نحتاجه حتى على مسافة بعيدة جدا. نحن نسلّم بأن هذا الكون قد خُلق باتصال الذرات (atoms)، ولكنا نقول إذا لم يكن لهذا الكون إلهٌ خالق فكيف اتصلت ذراته فيما بينها اتصالاً متوافقًا مع حاجات البشر، وفي زمان ومكان تمسّ فيهما الحاجة لها. إن اتصال الذرات فيما بينها يمكن أن يُعتبر صدفة، أما أن تتصل اتصالاً يسدّ كل حاجة إنسانية فلا يمكن أن يُعتبر صدفة، بل لا بد من الاعتراف أن أحدًا يدير هذا الكون. فلو رأينا مثلاً في مكان قطعةَ جلد، فيمكننا القول إنها وصلت هنا بالصدفة، ولكن لو رأينا أريكة وكرسيًا ومخدّة وحذاء من الجلد، فلا يمكن أن نعتبر كل هذه الأشياء قد وُجدت صدفة. إذًا، فإن نظام الكون ككلٍّ لا يمكن أن يكون صدفة، وإن جاز اعتبار وجود جزء منه صدفةً.

ثم إذا كان الله تعالى قد خلق لنا من ناحية العين خلقًا لا تقدر معه على الرؤية من دون الضوء، فإنه قد خلَق على مسافة ملايين الأميال شمسًا لتساعد بضوئها العينَ على رؤية الأشياء. فمن ذا الذي يمكنه أن يعتبر هذا كله صدفة؟ والحال نفسه بالنسبة إلى الحاجات الإنسانية الأخرى كلها، فليس هناك حاجة إنسانية طبيعية لم يخلق الله تعالى لسدّها أسبابًا. لقد خلق أسباب بعض هذه الضرورات في النفس الإنسانية ذاتها، وبعضها فيما حول الإنسان، وبعضها على مسافة ملايين الأميال منه. فما من حاجة للإنسان إلا وقد خلق الله أسبابها في هذه الدنيا، وهذا النظام مكتمل في ذاته بحيث لو رآه أحدٌ بصورته الكلية فلا يمكنه أن يظن أن هذا كله قد

تم مصادفة، لذلك يقول الله تعالى للناس انظروا إلى خلق هذا النظام السماوي والأرضي الذي هو أشد تعقيدًا من خلقكم. يمكنكم أن تقولوا عن شيء ما إنه قد حصل صدفة، ويمكنكم أن تقولوا عن شيئين إنهما حصلا صدفةً، ولكن كيف تعتبرون صدفةً كلَّ هذا النظام الهائل المذكور في قولنا ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۞ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۞ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾. فَكِّروا في هذا النظام الهائل في صورته الكاملة التي نعرضها عليكم، ثم بَيِّنوا ما إذا كانت هذه الأمور صدفة. أرى أن أحدًا لن يعتبرها صدفة مهما كانت الفلسفة التي يبني عليها عِلْمَه موغلة في الغرابة، بل لا بد له من الاعتراف بأن هناك من يدير هذا الكون، وهو عالمٌ بحاجات الناس ويمدّهم بها.

فالله تعالى يدعو الناس إلى التفكير في هذا النظام الهائل، منبّهًا إياهم أنه يمكنهم أن يظنوا أنهم خُلقوا بأنفسهم، ولكن لا يسعهم القول أن هذا النظام ليس له خالقٌ خلَقه، فلذلك يعرض عليهم هذا النظام الهائل كدليل على كونه تعالى خالقًا له؛ فليُمْعِنوا النظر في نظام الكون ويفكروا ما إذا كان هناك خالق خلَقهم أم لا؟ إذًا، فالله تعالى قد لفت نظر الناس إليه تعالى بأسلوب رائع هنا، لأنه تعالى لو استدل على كونه خالقًا لهم بتوجيه أنظارهم إلى أنفسهم قائلا إنه تعالى هو الذي قد وهبكم ألسنةً وعيونًا وأفئدةً وعقولاً، لأنكروا هذا الدليل وعزوا خَلْقهم إلى بعض الأسباب. لا شك أننا نقدّم هذا المثال نفسه في نقاشنا عادة، ولكن القرآن الكريم يقدّم قولاً مكتملا، ولذلك قد استدل الله فيه بنظام الكون الهائل على كونه خالقًا، لأن التفكير والتدبر في شيء آخر سهلٌ. وهذا الأسلوب يشبه قولَ الشاعر بالفارسية:

خوشتر آن باشد كه سرّ دلبران
گفته آيد در حديث ديگران

(مثنوي مولوي معنوي ص ٨)

أي ما أجملَ أن يُذكَر سِرُّ الأحبّة في ثنايا الحديث عن الآخرين!

فتفكير الإنسان في نفسه ليس سهلاً كما هو التفكير في الآخرين. وهذه هي الحكمة في هذا الأسلوب القرآني، حيث لم يدعُ الله الناس إلى التفكير في أنفسهم، ولم يقل لهم إنه قد أعطاهم عيونًا وعقولاً وقلوبًا وآذانًا وأيادي وأقدامًا كدليل على أن هناك مَن خلقهم، بل قدّم أمامهم شهادة هذا الكون الهائل ليسهل على من ينكر وجود البارئ ﷻ التفكيرُ في القضية بعقل هادئ.

والسبب الثاني لاتخاذ هذا الأسلوب هو أن الإنسان أشرف المخلوقات بلا شك، ولكنه ليس إلا نتاج هذا النظام الكوني الهائل، وليس إلا جُزَيئًا من أجزائه. لقد صار أشرفَ المخلوقات بسبب تطوره العقلي، ولكن فيما يتعلق بخلقه فهو بلا شك جزء من هذا النظام الهائل، ولا يساوي في خلْقته أمام خلق السماوات والأرض شيئا. فيما يتعلق بقضية الخَلق وحدها فإن خَلْق الكون هو الأهم، وخَلْق الإنسان بسيط جدًّا إزاءه. لا شك أنه قد ارتقى عقليًّا فيما بعد، ولكن هذا لا يؤثر في صلب القضية شيئًا. ولذلك قد عرض الله تعالى هنا خَلْق الكون، مبيّنًا للناس: كيف يعجز عن خلقكم مَن خلَق هذا الكون الهائل؟

وبتقديم هذا الدليل قد فصَل الله تعالى – ضمنيًّا – في قضيتين أخريين هامتين، وهما الحياةُ بعد الموت، والإحياءُ الروحاني الذي يتم على يد الأنبياء في هذه الدنيا. فدلّل على الحياة بعد الممات من حيث إنه تعالى ما دام قد خلَق الكونَ الذي هو أهمُّ من البشر خلقًا، والذي هم جزء منه، فلا بد لهم من الاعتراف أنه تعالى قادر على الخَلق في الآخرة. وبتعبير آخر إما أن يقولوا أن هذا الكون قد خُلق تلقائيا وليس هناك مَن خلقه ويديره، أو لا بد لهم من الاعتراف – نتيجة تدبرهم في الكون ودقائقه وحكمه – بأنه لم يُخلَق صدفة، بل هناك خالق له، وبالتالي لا بد لهم من الاعتراف بأن الله الذي خلق هذه الأشياء كلها مرةً قادرٌ على أن يخلقهم مرة أخرى. وكأن الله تعالى لم يبرهن على وجوده تعالى بهذا الدليل الواحد، بل أثبت أيضًا الحياة بعد الموت. لماذا، يا تُرى، لا يؤمن البعض بالحياة بعد الموت؟ إنما سببه أنهم يستبعدون ذلك، فيقول الله لهم إنكم جزء حقير من هذا الكون. هلا فكّرتم

فيمن خلَق هذا الكون الهائل لتعرفوا أن خالقه هو الله تعالى. فإذا كان الله تعالى قادرًا على خلق هذا الكون، فكيف لا يكون قادرًا على خلقكم؟

إذًا، كما أكّد الله تعالى مِن قبل بقوله ﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ بأن عذاب الدنيا دليل على عذاب الآخرة، كذلك بيّن هنا أن الله الذي قدر على أن يخلقكم في الدنيا قادرٌ على أن يخلقكم في الآخرة. كل ما في الأمر هو أن تروا ما إذا كان قد وعد بخلقكم ثانية أم لا؟ فإذ سبق منه هذا الوعد فقد حُسم الأمر وانتهى، ولم يبق مجال للسؤال كيف يخلقنا ثانية؛ لأنه تعالى ما دام قد أثبت قدرته على الخلق بخلق هذا الكون الهائل، فثبت أنه قادرٌ على الخلق في الآخرة، وهذا الخلق ليس مستحيلا عليه. إذًا، إن خلق الكون دليل على الحياة بعد الموت أيضا.

كما أن هذه الآية قد برهنت على إحياء الموتى الروحانيين في الدنيا، حيث بيّن الله تعالى أنه ما دام قد هيّأ الأسباب لسد حاجاتكم البسيطة لاستمرار حياتكم المادية، فكيف تظنون أنه لم يهيئ الأسباب لحياتكم الروحانية؟ فما دام قد هيّأ لحفظ أجسامكم – وهي فانية في النهاية حتمًا – أسبابًا كثيرة حتى إن بعضها يبعد عنكم ملايين الأميال، فكيف يتغافل عن خلق الأسباب لحفظ أرواحكم؟ إن الله الذي اهتمّ بتكميل نظام العالم الكبير (أي الكون) مِن كل النواحي، كيف يمكن أن يتهاون في سدّ حاجات العالم الصغير (أي الإنسان)، سواء كانت حاجات مادية أو روحانية؟

رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

سَمْكَها: سَمَكَه سَمْكًا فسَمَكَ: أي رفَعه فارتفع. والسَّمْكُ: السقفُ؛ أو مِن أعلى البيت إلى أسفله؛ القامةُ من كل شيء والسَّمْكُ: الثِّخَنُ الصاعدُ كسَمْكِ المنارة. (الأقرب)

وسنامٌ سامِكٌ: مرتفع. (التاج)

وهذا يعني أن كلمة سَمْك تفيد معنيين؛ أولهما أن يكون الشيء عاليًا وبعيدا، وثانيهما أن يكون عالياً وغليظًا.

وقال ابن جزي: "السَّمْك غِلَظُ السماء، وهو الارتفاع الذي بين السطحِ السِّفْلي الأسفلِ الذي يلينا وسطحِها الأعلى الذي يلي ما فوقها." (فتح البيان)

وهناك اختلاف بين اللغويين في معنى السمك كما مرّ، فقد قال بعضهم إن لفظ السمك لا يشير إلى مقدار ارتفاع الشيء فقط، بل يشير إلى مقدار ما بين أعلاه وأسفله؛ فإن صاحب "الأقرب" قال: "السَّمْكُ: من أعلى البيت إلى أسفله"، بينما قال بعض الكتّاب الآخرين خلاف ذلك، فكتب صاحب "الكشّاف": ﴿رفَع سَمْكَها﴾.. أي جعَل مقدارَ ذهابها في سَمْتِ العُلوِّ مديدًا رفيعًا (الكشّاف).

فكأن السمك يكون من أسفل البيت إلى أعلاه.

وقد بيّن بعضهم سبب ذلك وهو أن "أصل العُمْقِ البُعدُ سُفْلاً (المفردات).. أي مقدار ما بين أعلى الشيء إلى أسفله، أما السَّمْك فيدل على مقدار ما بين أسفله إلى أعلاه.

ولكن القرآن الكريم، بعد أن استعمل كلمة (السَّمْك)، ذهب في بيانه من الأعلى إلى الأسفل، وليس من الأسفل إلى الأعلى، حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۞ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ منْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۞ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامكُمْ﴾. فقد ذكر تعالى هنا أوّلاً ما يوجد في العلو، ثم ذكَر الأشياء التي توجد على الأرض. فيبدو، بحسب الترتيب الذي راعاه القرآن الكريم هنا، أن الذين قالوا إن السَّمْك يشير إلى ما بين أعلى الشيء إلى أسفله هم أقرب إلى الصواب. وربما تفيد هذه الكلمة المعنيين كليهما.

فسوّاها: سوّى الشيءَ: جعَله سويًّا.. أي لا داءَ به ولا عيبَ. (الأقرب)

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أنكم لو أمعنتم النظر في نظام هذا العالم لعلمتم أنه لو لم يجعل السَّمْكَ، أي السماء الرفيعة، لظلّتْ هذه الأشياء كلها ناقصة. إن هذه

الرفعة هي التي قد سترت عيوب الأرض، فبدا كل شيء فيها مكتملا؛ فلو لم يجعل الله هذه الأجرام الكبرى من شمس وقمر ونجوم لاستحال استقرار الأرض. والحق أن الأرض قد أصبحت صالحة للعيش عليها نتيجة جاذبية الشمس والقمر والنجوم، ولولا هذه الأجرام في العلو لرأينا آلاف العيوب والخلل في هذه الأرض التي تخلو الآن من أي عيب وخلل بسببها، والتي تمدّنا بما نأكل ونشرب – بل لم تصلح لعيش الإنسان عليها أصلاً. فالسماء هي التي تستر عيوب الأرض، والأجرام هي التي تتسبب في طلوع النهار الذي نكسب فيه معاشنا، وهي التي تأتي بالليل الذي نستريح فيه ونستعيد قوانا وطاقاتنا من جديد.

إذًا، فإن من مِنَن الله العظيمة أنه خلق السماء ورفعها في سمت العلو. علمًا أن الفاء في قوله تعالى ﴿فَسَوَّاها﴾ للنتيجة والترتيب، والمعنى أنه تعالى رفَع سَمْكَ السماء جدًّا، وهكذا قام بتسوية الأرض، أي جعَلها بدون عيب وخلل. فالفاء إشارة إلى أنه لولا النظام السماوي فوق الأرض لما اكتمل نظامها.

لقد نبّه الله تعالى بهذه الآية إلى أن تخلّص الإنسان من العيوب منوط برفعته ووصوله إلى الله، لأننا نجد وكأن الدنيا مليئة بالوحوش رغم كثرة كبار الحرفيين والمهندسين والعلماء فيها؛ إذ لا يهتم هؤلاء بالأخلاق ولا بالروحانية، بل لا يوجد عندهم إحساس بحب الله تعالى، وإنما يتهافتون على مغريات الدنيا ولذاتها، كالحيوانات التي لا همَّ لها إلا الأكل والشرب. ولكن عندما يُبعَث أنبياءُ الله إلى هذه الدنيا نفسها التي تقدّم مشهدًا للوحشية والبربرية، فإنها تبدو جميلة جدًّا، وتعمر القلوب بالإخلاص، ويتجلى الوداد من العيون، وتلتاع القلوبُ بحب الله مع أنها لم تكن تهتم بحبه تعالى من قبل مطلقًا، وتبدو الدنيا صالحة للعيش. عندها تجد الفيلسوف الذي كان بعيدا عن الله ينجذب إليه تعالى ببركة نور الأنبياء، وتجد كبار الحرفيين والمهندسين والمخترعين الذين كانت طاقاتهم تُهدر مِن قبل، يسلكون الصراط المستقيم، ويتخلصون من شتى العيوب والنقائص.

فالله تعالى قد نبّه هنا أنكم إذا أردتم أن تروا الدنيا منـــزهةً عن العيوب والنقائص فلا تنكروا ضرورة السماء. فكما أن بقاء الأرض بدون السماء محال في العالم

الكبير (أي الكون)، كذلك من المحال أن يتجلى حسن العالم الصغير (أي الإنسان) ما لم ينـــزل وحي الله وكلامه من السماء، وما لم يُبعَث أنبياؤه الذين يعملون على إبراز هذا الحسن وتجليته. وحيث إنكم تعترفون أن الله تعالى قد خلق السماء لبقاء الأرض واستقرارها وتخلُّصها من عيوبها، فلا بد لكم من الاعتراف أيضًا بضرورة وحي الله وكلامه. فإنه تعالى إذا لم ينـــزل وحيه من السماء وإذا لم يبعث أنبياءه من عنده لما تخلصت الأرض من العيوب والنقائص والذنوب. إن كلام الله تعالى وبعثة أنبيائه هو الذي يستر عيوب الدنيا فتبدو جميلة رائعة.

بعد هذه الآية بيّن الله تفصيل هذه التسوية ونتائجها.

وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾

التفسير: أي جعَل ليلها حالكَ الظلام، وأخرج نهارها أو ضوءها أو ظهيرتها. ولا يعني ذلك أن الله تعالى قد حوّل شيئًا إلى آخر، بل المراد أنه تعالى جعل ليلها مظلمًا وجعل نهارها مضيئا.

لقد أرجع الله تعالى ضمير المؤنث (الهاء) في قوله ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ إلى السماء، مع أن الليل لا أثرَ له على السماء إنما يُظلِم الأرضَ حين لا تكون أمام الشمس، فالواقع أن الليل هو ليلنا نحن أهل الأرض، وليس ليلَ السماء، والضحى هو ضحانا وليس ضحى السماء؛ فلماذا أرجع الله الضمير إلى السماء أيضا؟

والجواب أن الشمس والقمر جزء من السماء، ولا يحل الليل إلا بمغيب الشمس التي هي في العلو، ولذلك نُسب الليل إلى السماء. ولا يعني هذا أن الليل يحدث في السماء، وإنما المعنى أن ظاهرة الليل نتيجة للنظام السماوي الذي يمد الأرض بالضوء، ولكن ضوء الشمس لا يصل إلى الأرض حينما لا تكون أمام الشمس، بل يخيم الظلام على الأرض. فالواقع أن الليل إنما نُسب إلى السماء لكونه ذا صلة بالنظام السماوي، وجزءاً منه. وكذلك يصح أن نقول "ضحى السماء"، لأن ضحانا أيضا منوط بالنظام السماوي.

والجواب الثاني أن السماء ليست شيئًا ماديا، بل يراد بها الفضاء العلوي، فيصحّ نسبةُ الليل والنهار إليها.

بيّن الله تعالى بقوله ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أنه جعل الليل مظلمًا والنهار مضيئًا، لينبّه إلى أن الليل زمنُ الخمول الذي تظلّ فيه قوى الناس مخفية ولا تنكشف ما لم يبدّد ضوء النهار ظلمة الليل. وبالمثل فإن كفاءات القوم تظل مكتومة ولا تتجلى ما لم يُبعَث نبي من عند الله تعالى. الدنيا لا تطّلع على كفاءاتهم الطبيعية ما لم تطلع شمس النبوة وتجلي على الدنيا كفاءاتهم المستورة وتكشف حقيقتهم. هذا هو القانون الإلهي الذي نجده عاملاً في العالمَيْن الروحاني والمادي كليهما. لقد نبّه الله تعالى بهذه الآية العربَ إلى هذا القانون، موضحًا لهم أنكم تظنون أنكم تتحلون بكفاءات عالية، ولا مثيل لكم في الشجاعة والكرم والوفاء بالعهد، ولكن ينبغي أن تدركوا أن هذه الخصال لا تتجلى جلاء كاملا ما لم يُبعث نبي. لا شك أن الناس يتحلون بتلك الكفاءات قبل بعثة نبي، ولكن نطاق عملهم يكون محدودًا جدًّا إذ لا يوجد عندهم نظام، فلا تنتفع الأمة بمجموعها بكفاءات أفرادها. وعندما يبعث الله تعالى نبيًّا ويقيم بين القوم نظاما جديدا تتجلى كفاءاتهم بحيث تنكشف أمام الدنيا قدرات كل شخص بشكل بارز. لا شك أنهم يتحلون بالكرم والسخاء وإكرام الضيف والشجاعة والوفاء، ولكن نطاق هذه الخصال الحميدة يكون محدودًا لا تتوجه إليها أنظار الدنيا. ولكن عندما يقيم الله تعالى نظاما جديدا على يد نبي وينخرط القوم في سلك الوحدة، تتجلى كفاءة كل إنسان بشكل بارز، فلا تملك الدنيا إلا الاعتراف بكفاءاتهم المدهشة. عند بعثة النبي يدخل سخاؤهم وجرأتهم وشجاعتهم وبسالتهم تحت النظام، وتصبح كفاءاتهم الشخصية ومحاسنهم الأخلاقية نموذجًا للقوم. إنهم يتحلون بهذه المحاسن من قبل أيضا، ولكن ظلمة ليل الجهل تحجبها، وعندما تطلع عليهم شمس النبوة تتوجه إليهم أنظار الناس أجمعين، وكل إنسان يرى محاسنهم التي لم يكن يراها أحد من قبل، وترتفع الصيحات بالثناء عليهم والإشادة بهم.

يشهد التاريخ أن العرب كانوا متحلين بخُلق الشجاعة والبسالة في أيام الجاهلية أيضًا، ولكن خُلقهم هذا كان مستورًا عن باقي الناس. لا شك أن العرب كانوا مدركين لخُلقهم هذا، ولكن متى كانت الشعوب الأخرى تعلم ذلك؟ كان العرب شجعانًا بلا شك، ولكن ظلمة الليل المخيم عليهم كانت قد حجبت خلقهم هذا، ولما وقع عليهم ضوء النور النبوي جلّى خُلُقَهم كما يُجلّي الطلاءُ لون الخشب. لقد تجلّت روح الشجاعة فيهم بحيث تجد تاريخ الدنيا مليئًا بقصص شجاعتهم.

وكذلك لا يسع أحدًا أن ينكر أن العرب كانوا متحلين بخلق الكرم والجود قبل بعثة النبي ﷺ، ولكن الإسلام علّمهم أن يعملوا بهذا الخُلق ويسخوا على الناس احتسابًا لله تعالى وابتغاءً لمرضاته. الفائدة الأخرى التي جناها العرب ببعثة الإسلام أن الدنيا لم تكن تعلم بخُلق الكرم والجود فيهم، ولكن حينما أضاء نور الإسلام وجوههم وبدّدت شمسه ظلمة الليل المخيم عليهم، ذاع صيت سخائهم في العالم أجمع بحيث لا تزال قصص كرمهم مسجلة في التاريخ.

والوفاء بالعهد أيضًا من أبرز الأخلاق الإنسانية، وقد حثّ عليه الإسلام كثيرا، ولكن من ذا الذي يمكنه أن ينكر تحلّي العرب بهذا الخُلق قبل الإسلام؟ الفرق الوحيد هو أن هذا الخُلق لم يتجلَّ قبل الإسلام الذي أبرزه وجلاّه فيهم. كان كل شخص منهم يتمسك بهذا الخُلق فيما يتعلق بشخصه فقط، ولم يكن يبالي به على المستوى القومي، ولكن الإسلام ألزمهم بالوفاء بالعهد في معاملتهم الشخصية والقومية كلتيهما، واعتبر إخلاف الوعد سببًا لسخط الله تعالى. والفائدة الأخرى التي جناها العرب بعد ظهور الإسلام أن الدنيا كلها اطّلعت على خُلقهم هذا. فكما أن الناس لا يميزون في ظلمة الليل بين الجميل والدميم، وإذا طلع النهار تجلى عليهم جمال الجميل ودمامة الدميم، كذلك كان العرب متحلين بخلق الوفاء ولكن العالم كان يجهل ذلك، فجاء الإسلام وجلّى خُلقهم أيما تجلية حتى تجد تواريخ العالم مليئة بقصص حرص العرب على الوفاء بالعهد.

كنا نقرأ في صغرنا واقعةً لبعض العرب في كتب قصص الأطفال بالإنجليزية، بأنه كان في إسبانيا تاجر اسمه يوسف، قُتل ابنه بيد شخص، وهرب القاتل ووصل

بالصدفة إلى والد القتيل يطلب منه أن يؤويه في بيته، لأن الشرطة تطارده. ولم يعرف يوسف أن ابنه قد قُتل، فخبَّأه في بيته، وبعد قليل جاء رجال الشرطة إليه حاملين جثة ابنه، وقالوا: لقد قتله شخص رأيناه يهرب بهذا الاتجاه، فهل تعرف أين ذهب؟ فمع أن يوسف كان قد رأى جثة ابنه وقد علِم أن الذي خبّأه في بيته هو قاتل ابنه، إلا أنه لم يرض بالغدر به، وردّ على رجال الشرطة ردًّا يئسوا به من مواصلة اللحاق بالقاتل، وظنوا أنه قد هرب إلى جهة أخرى. ولما رجعت الشرطة أخرج التاجرُ قاتلَ ابنه من ظهر البيت وقال: اهرب الآن، فإن الشرطة قد ذهبت.

هذه الواقعة مثال رائع للوفاء بالعهد، ولم يجد الأوروبيون نظيرها في بلدانهم، فاضطروا لتسجيلها في كتبهم رغم عدائهم الشديد للإسلام، ولا تزال مسجلة في كتبهم مع أنها قصة مسلم عربي.

إذًا، كان العرب متحلين بخُلق الوفاء بالعهد بحيث لا يسع أحدًا إنكاره، إلا أن خلقهم هذا تجلى بظهور الإسلام بصورة بارزة جدًا. كما لم يكن العرب متحلين بهذا الخلق بحيث تتوجه إليهم أنظار العالم، ولكن لما وقع عليهم نور النبي ﷺ تجلى حسنهم هذا أمام العالم كله، كما انكشفت محاسنهم الأخرى شأن الأشياء التي لا تبقى خفية إذا ما وقع عليها ضوء الشمس. فالله تعالى قد نبّه هنا العرب بأنهم يتحلّون فطريا بكفاءات ولا شك، ولكن عليهم أن يعلموا أنه لا بد من ضوء النهار لانكشافها. فإذا لم يسيروا تحت هذا الضوء، ظلّت كفاءاتهم ومحاسنهم مستورة عن أعين العالم. أما إذا وقع عليهم نور المصطفى ﷺ جلّى كفاءاتهم وأبرزَها بحيث صوّب كل شخص بصره إليهم، واطلعت الشعوب الأخرى على محاسنهم.

وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

بعدَ: ضدُّ "قَبْلُ"، وقد يرِدُ بمعنى "مع". (الأقرب)

دحاها: دحا الشيء: بسَطه (الأقرب). دحا الأرضَ: أوسعَها. (اللسان)

التفسير: إن (بعد) في قوله تعالى ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ قد يفيد المعنيين المذكورين أعلاه: أي ضد قبل، ومع. والمراد أن الله تعالى مهّد الأرض بعد أن خلق النظام الشمسي، أو بدأ تمهيد الأرض وهو يخلق النظام الشمسي. والمعنى الثاني هو الأولى عندي.

وبسط الأرض لا يعني أن الله جعلها كفراش، بل يعني أنه جعَلها صالحة للعيش.

إننا لسنا ملزمين برأي علماء الجيولوجيا، إلا أن بحوثهم تصدّق القرآن تماما بهذا الشأن. لقد توصلوا إلى أن الأرض كانت شديدة الحرارة في البداية، ومِن أبخرة هذه الحرارة تكوّنَ الماء، ثم خرجت الحمم من باطن الأرض وكوّنت الجبال. وخروج الحمم أدى إلى تشكُّل الجبال من ناحية، وانخفاض سطح الأرض من ناحية أخرى، كما يحدث عند الزلازل عادة حيث يرتفع سطح الأرض من جانب وينخفض من آخر، وتكونت حفر كبيرة في الأرض. وحيث إن الماء يجري إلى المكان المنخفض؛ فلقد تجمَّعَ الماء في الأماكن المنخفضة من الأرض حين ارتفع سطحها في الأماكن الأخرى. وليست البحار إلا تلك الحفر الكبيرة أو الأماكن المنخفضة التي خرجت منها الحمم وشكلت جبالاً. وحينما تشكلت الجبال في جانب، وانحسر الماء في المنخفضات، صار سطح الأرض مستويًا صالحًا لعيش الإنسان عليها.

ولكنه أمر ظنّي على كل حال، إذ قد يظهر غدًا بحثٌ يبطله.

كذلك يقدّم العلماء عن خلق الأرض نظرية تقول إنه كانت ثَمّةَ كُرةٌ ملتهبةٌ شبهُ سائلة، ومن شدة دورانها انفصلت وتناثرت عنها تلك الأجرامُ التي نطلق عليها أجرام النظام الشمسي بما فيها الأرض، واتخذت شكل كُرات حين بردت.

باختصار، قد أحدث الله تعالى من خلال النظام الشمسي هذه التطورات التي أدت إلى صلاح الأرض للعيش عليها، ولولا النظام الشمسي لم تصلح للعيش. وكما أن النظام الشمسي ضروري للنظام الأرضي كذلك لا يكون النظام الجسماني للناس ذا قيمة دون قيام النظام الشمسي الروحاني؛ إذ لولا النظام الشمسي المادي لما تكونت

الجبال، ولما تكونت الحفر التي تحولت إلى البحار، ولما صلحت الأرض لعيش الإنسان عليها. فلا قيمة للنظام الجسماني للإنسان ما لم يكن هناك نظام شمسي روحاني يطرد من النفس الإنسانية ما فيها من حمم العادات النارية، ويجعلها مستوية موزونة. إن النظام الشمسي الروحاني هو الذي يكبح غيظ الإنسان من ناحية، ومن ناحية أخرى يجنّبه اللينَ الزائد والتسيُّبَ وعدمَ الحياء، ويجعله بتعليمه المعتدل عضوًا مفيدا في المجتمع. وبتعبير آخر كما أن الله تعالى يُخرج من باطن الأرض الحمم التي تتحول جبالاً، كذلك فإن الدين يخفّف من خلال بعض القيود ما في الطبيعة الإنسانية من غضب وهياج وانتقام، ولكنه لا يريد إخماد هذه النار والحرارة في باطن الإنسان كليةً، فيأمره أيضًا بما يجنّبه من الديّوثية وعدم الحياء وينفّره من الكسل والغفلة. وبعدما تتخلص الفطرة الإنسانية من كل فساد وتتحلى بكل ما هو خير وصالح، عندها يصبح هذا النظام الجسماني للإنسان ذا قيمة. ولكن إذا لم يكن على هذا النظام الإنساني الجسماني نظامُ السماء الروحانية الذي يكبت جماح الغرائز الحيوانية في النفس الإنسانية من جهة، ومن جهة أخرى يجنّبها الكسلَ والغفلة، فمن المستحيل أن يكون النظام الإنساني ذا وزن أو قيمة. إن النظام السماوي هو الذي يتيسر بقيامه الغذاءُ والماء الروحاني للناس، ويخرج من بينهم أناس كالجبال التي تتسبب في استقرار الأرض.

مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

شرح الكلمات:

الأنعام: جمعُ النَعَم.. وهي الإبل والشاءُ، وقيل: خاص بالإبل. وفي "المصباح": النَّعَمُ: المالُ الراعي، وهو جمعٌ لا واحد له من لفظه -كلفظ النساء حيث لا مفرد له من لفظه، بل مفردها امرأة- وأكثرُ ما يقع على الإبل. وقيل: النَّعَمُ الإبل خاصة، والأنعامُ: ذواتُ الخُفّ والظلف، وهي الإبل والبقر والغنم، وقيل: يُطلَق الأنعامُ على

هذه الثلاثة، فإذا انفردت الإبلُ فهي نَعَمٌ، وإن انفردت الغنم والبقر لم تُسمَّ نَعَمًا. (الأقرب)

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن نظام الكون ليس لمنفعتكم فقط، أيها البشر، بل إنه نافع لأنعامكم أيضًا، حيث يمدّها الله تعالى بما تحتاج إليه لحياتها وراحتها. لقد نبه الله تعالى بضرب هذا المثال من النظام المادي إلى أنه لا يهتم بحاجات الحيوانات في نظام العالم المادي فقط، بل في نظام العالم الروحاني أيضا. لقد ركّز القرآن على هذا الموضوع بشكل خاص، وأوصى المؤمنين بإعطاء كل ذي حق حقه، فقال تعالى ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات:٢٠).. أي في أموال المؤمنين حق للذين يسألون وللذين لا يستطيعون السؤال، كإنسان قليل الكلام أو شعوب ضعيفة منهارة أو حيوانات. وقد حثّ النبي ﷺ على هذا الأمر في أحاديثه، فقال إن امرأة دخلت الجنةَ لأنها سقت كلبًا غلَبه العطش. (مسلم، كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم). وقال ﷺ: ارحموا الحيواناتِ لأن الله تعالى قد جعلها تحت رعايتكم.✪

إذًا، فإن التعليم الروحاني لا يضمن السلام للناس فحسب، بل للحيوانات أيضًا. وفي العالم المادي أيضًا قد جعل الله نظامًا لإطعام الحيوانات، فإن الغلال تنفع الإنسان، بينما ينفع التبنُ الحيواناتِ. إنني أفكّر دائمًا أن الزروع لو أنتجت الحبوب والغلال فقط لقتَل الناس الحيواناتِ جوعًا. ولكن انظرْ إلى عجائب قدرة الله كيف جعل بطن الإنسان صغيرا وبطن الحيوان كبيرا، وجعل الحبوب قليلة، والتبن كثيرا. ولو كانت هناك غلال فقط لأكلها الإنسان ومات الحيوان جوعا. والحال نفسه ينطبق على النظام الروحاني أيضا، فلولا أن الله تعالى أقام نظامًا روحانيا من عنده لهضَم الأقوياء حقوق الناس هضمًا، وسلبوا الفقراء سلبًا، كما يحصل اليوم حيث

✪ أقرب ما وجدناه بهذا المعنى هو الآتي: عن قُرّة بن إياس أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني لأذبح الشاة فأرحمُها؟ فقال: "والشاةُ إنْ رحمتَها رحمك الله"(مسند أحمد: حديث قرة، والمستدرك: ذكرُ قرة). وقيل لرسول الله ﷺ: إنّ لنا في البهائم لأجراً؟ قال: "في كل ذاتِ كَبِدٍ رَطْبةٍ أجرٌ." (مسلم: كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم)

تريد ألمانيا الاستيلاء على ثروات الدنيا كلها، بينما تنوي إنجلترا وأمريكا أن تكون ثروة العالم كلها في أيديهما. لا شك أن هؤلاء يعطون الآخرين حقوقهم، ولكن بصفتهم حلفاء وأصدقاء، لا بصفتهم أناسًا. ولكن النظام الذي يقيمه الله تعالى في الدنيا يراعي حقوق الجميع، ويضمن لكل ذي حق حقه؛ صغير وكبير، غني وفقير، مدير وعامل.

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾

شرح الكلمات:

الطامّة: طَمَّ الماءُ: غمَر. طمَّ فلانٌ الإناءَ: ملأه. وطمَّ الشيءُ: كثُر حتى علا وغلب. وطمَّ الأمرُ: تفاخَمَ. والطامّة: الداهيةُ تغلِب ما سواها، قيل لها ذلك لأنها تطُمّ كلَّ شيء، أي تعلوه وتغطّيه. (الأقرب)

التفسير: لقد قدّم الله تعالى هنا دليلا آخر على الإحياء الروحاني في الدنيا وعلى البعث بعد الموت، فقال كيف لا يقدر الله على أن يبعثكم بعد الموت وقد قدر على إحداث هذا الانقلاب الروحاني العظيم الذي يفوق تصور الإنسان وقياسه؟ وكيف لا تدركون برؤية هذا الانقلاب أن ما يقوله الله تعالى عن غلبة الإسلام حق وصدق أيضا؟

قبل عدة آيات قال الله تعالى ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۞ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾.. أي أننا سنسوق الكافرين إلى ساحة القتال بغتةً ونفضحهم هناك، وكان هذا إشارة إلى غزوة بدر التي قد قال الله للكفار بشأنها: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، وسيتلوها المزيد من الحروب، كما أشار إلى ذلك من قبل بقوله ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۞ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾.. أي سندفعهم إلى حرب تلو حرب؛ أما الآن فقد حذّر الله تعالى أنه بعد هذه الحروب المتتالية سيأتي يوم الطامّة الكبرى.. أي فتح مكة؛ ويومَ الطامّة الكبرى ستنكشف عليكم حقيقة أعمالكم جليًّا.

لقد اتضح من هنا تمامًا أن الحديث هنا هو عن عذاب الدنيا لا عن القيامة، لأن الله تعالى يذكر هنا أن هذا العذاب سينـــزل تدريجيا، حيث قال سيحصل كذا ثم كذا ثم ستأتي الطامة الكبرى، أما القيامة فقد بين الله تعالى أنها ستأتي بغتة. فثبت أن الراجفة والرادفة والطامة الكبرى وغيرها من المفردات إشاراتٌ إلى العذاب الذي كان سيحلّ بالكفار في الدنيا. وبالفعل وقعت أولاً معركة بدر، ثم ردفها حرب بعد حرب، وفي النهاية كان فتح مكة وغلبة الإسلام.

أما إذا اعتبرنا هذه الآيات تتحدث عن الآخرة فنقول إنها إعادة للموضوع السابق وقد أطلق الله هنا الطامة الكبرى على اليوم الذي سيأتي بعد وقوع أنواع العذاب، أي يوم القيامة الذي هو يوم الفصل الأخير، والذي يبلغ فيه العذاب ذروته.

بيد أن الآية تشير، أساسًا، إلى عذاب الدنيا.

يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾

التفسير: أي في ذلك اليوم يتذكر المرء أعماله ويقول نادمًا: لـــمَ فعلتُ كذا ولـــمَ لم أفعل كذا. من طبيعة الإنسان أنه إذا رأى مآل سيّئته وأدرك أن العقاب موشك، قال في نفسه: لو فعلت كذا لحصل كذا، ولو لم أفعل كذا لم يحصل كذا. وقد رسم الله تعالى هنا هذا الجانب من الفطرة الإنسانية. وعندي، ليس في الدنيا من لا يفكر هكذا حين يرى عاقبة عمله؛ سيئةً كانت أو حسنة. فمثلا حين يفشل طالب في الامتحان يقول في نفسه: لو لم أضيّع وقتي في اللعب لما فشلت، وحينما ينجح غيره يقول: لو لم أضيع وقتي في اللعب لنجحت بعلامات أفضل. إذًا فإن الإنسان يتذكر حتمًا أعماله السابقة عند ظهور النتيجة النهائية. يقول إذا فشل متحسرًا: ليتني لم أعمل ما سبّب فشلي، ويقول إذا نجح: لو ضاعفت جهودي لكان نجاحي أكبر. لقد رسم الله تعالى هنا هذه الفطرة الإنسانية فقال ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾.. أي عندما يصدر القرار النهائي بين الإسلام والكفر يوم فتح مكة سيتذكر كل إنسان أعماله، ويرى بأمّ عينيه مصيره وفقًا لسلوكه تجاه الإسلام. يمكن أن تتصور حالة الكافرين والمشركين

الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ أذًى شديدًا والذين سمعوا إعلانه يوم فتح مكة أن مَن دخل بيته وأغلق عليه بابه فهو آمن. لا شك أنهم كانوا يقولون في أنفسهم وهم قابعون في بيوتهم: لو لم نُعادِ الإسلام لم نختفِ اليوم في بيوتنا هكذا، بل كنّا نركض بخيلنا في شوارع مكة.

ذهب عمر رضي الله عنه مرة إلى مكة حاجًّا أيام خلافته، فجاءت للقائه مجموعة من كبار رؤسائها الذين كانوا أشرف نسبًا من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أيضا، إذ كانوا ينتمون إلى أشرف عائلات مكة وأشهرها. ولما كان الخليفة يعلم أُسرهم فظن هؤلاء أنه سيكرمهم إكراما خاصًا طبقًا لتقاليدهم القبلية. وبينما هم يحاورونه حضر مجلسه مسلم حبشي كان عبدًا في الماضي وكان رؤساء قريش يجرّونه في شوارع مكة. فجاء وسلّم، فأمر عمر رضي الله عنه هؤلاء الرؤساء بإفساح المجال له، فتأخروا قليلاً، فقرّبه عمر إليه وأخذ يحدّثه. وبينما هم في ذلك إذ جاء مسلم آخر من أوائل المسلمين، ثم جاء ثالث ورابع، حتى حضر سبعة منهم واحدًا بعد الآخر. ومن عجائب القدر أن هؤلاء كلهم كانوا عبيدًا لقريش في الماضي، ولعل الله تعالى أراد أن يلقّن هؤلاء الرؤساء درسًا، فكلما جاء أحد هؤلاء المسلمين الأوائل طلب عمر من الرؤساء بإفساح المجال له وقرّبه إليه، فما زالوا يتأخرون في كل مرة حتى وصلوا إلى آخر المجلس في مكان الأحذية. وبعد قليل خرجوا من مجلسه، وقالوا فيما بينهم: أرأيتم ما لقيناه اليوم من ذل وإهانة في مجلس عمر؟ كنا نُكرَم في بلاط الملوك، ولكنه فضّل علينا اليوم هؤلاء العبيد الذين كانوا خدمًا لآبائنا، فكلما أتى أحدهم أمرنا أن نفسح له المجال، حتى وصلنا مكان الأحذية! فيا للعار الذي لحق بنا اليوم! فقال أكثرُهم ذكاءً: لا غبار على ما تقولون، ولكن علينا أن نرى من المسؤول عن ذلك ومن يقع عليه اللوم، عمر أم آباؤنا؟ فحينما أعلن النبي ﷺ دعواه صدّقه هؤلاء العبيد، وانبرى آباؤنا لمعاداته، فعارضوه معارضة شديدة. فإذا كان عمر رضي الله عنه قد أكرمهم اليوم وقرّبهم إليه وأبعدنا عنه، فقد أصاب، لأنهم أحقّ بالجلوس في صدر المجلس، ونستحق نحن أن نؤخَّر، لأن آباءنا ناهضوا النبي ﷺ وظلوا محرومين من الإيمان به ﷺ. فقالوا: لقد صدقتَ، ولكن هل من سبيل لإزالة هذا العار؟ وهل من طريق للتخلص من هذا الخزي والهوان؟

فتشاوروا و لم يدروا ما السبيل إلى ذلك، فقالوا هلمّوا نسأل عمر ﷺ. فرجعوا إليه وقد انفضّ الناس من عنده، فسلّموا وجلسوا وقالوا: أمير المؤمنين، رأيتَ ما لقيناه اليوم من الخزي و لم نرجع إليك إلا لنتحدث بشأنه. فقال لهم عمر: أعتذر لما حصل، ومتأسف لما أصابكم، ولكني لم أملك خيارًا آخر، بل كنتُ مضطرًا لذلك. إن هؤلاء قوم كان الرسول ﷺ يُكرمهم، وما ينبغي لي إلا أن أكرم الذين كان سيدي يكرمهم، وأفضّلهم على غيرهم. فقالوا: لقد فهمنا أنك أصبتَ فيما فعلت، إنما نسألك هل من سبيل لإزالة هذا العار؟ فأرشِدْنا إليه، لأنا لا نرضى بوصمة العار هذه.

كان آباء هؤلاء الرؤساء من أقارب عمر ﷺ وأصدقائه ومعارفه، وكان على علم ومعرفة بتلك الهيبة والمجد والعزة التي كانت تتمتع بها أسرهم العريقة، وكيف كانوا يعاملون المسلمين باحتقار وازدراء. فتذكَّر عمر ﷺ مجدهم الغابر، واغرورقت عيناه وغلبت عليه الرقة، فلم يستطع أن يجيبهم بلسانه، وإنما أشار بيده ناحية الشام، وكان يقصد أن المسلمين خائضون معركةً حامية ناحية الشام لنصرة الإسلام، فإذا كنتم تريدون إزالة العار، فاذهبوا واشتركوا في تلك الحرب، وضحُّوا بأنفسكم في سبيل الله. ففَهِمَ الفتية قصْد عمر ﷺ، فخرجوا من عنده، و لم يرجعوا إلى بيوتهم، بل توجهوا كلهم إلى الشام. ويخبرنا التاريخ أنه لم يعد منهم حيًّا أحد، بل استُشهدوا جميعا في تلك المعركة.

هذا ما يؤكده الله تعالى بقوله ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾.. أي سيفكّر الإنسان يومئذ فيما قدَّمته يداه من أعمال. الواقع أن الصحابة أنفسهم لما رأوا تلك الانتصارات والترقيات فلا بد أنهم اعتبروا التضحيات والصدقات التي كانوا يستعظمونها من قبل ضئيلةً، وقالوا في أنفسهم مرارًا: ليتنا كنّا أكثرَ تضحيةً وإخلاصا حتى نكون اليوم أكثر ثوابًا!

إذًا، فقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ يعني أن كل إنسان يقول يومئذ: ليتني لم أفعل ما فعلت، أو ليتني ضاعفت جهودي.

أما نظرًا إلى القيامة، فستعني هذه الآية أن المرء حين يرى ما عملته يداه في الدنيا من أعمال يقول بحسرة: ليتني لم أقترفها، أو يقول فرحًا: لقد أحسنتُ صنْعا.

وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

الجحيم: جحَم النارَ: أوقدَها. والجحيمُ: النارُ الشديدةُ التأجّج؛ كلُّ نار عظيمة في مَهْواةٍ فهي جحيم؛ المكانُ الشديدُ الحرِّ؛ اسمٌ من أسماء جهنم. (الأقرب)

قوله تعالى: ﴿لِمَنْ يَرَى﴾ تقديرُه: "لمن يراه"، والمراد ستُقرَّب الجحيم إلى من يراها.

ولكن هذا لا يعني أن المبصر هو الذي تُقرَّب إليه الجحيم ليعذَّب فيها، أما الكفيف فلا يدخلها. إذًا، فعلينا أن نفسر الآية بمفهوم آخر.

ولها عندي مفهومان: أوّلهما أن الجحيم ستقرَّب إلى من يراها، أي يستحق أن يلقى فيها، أما المؤمنون فلن يروها البتة. ذلك لأنه كان من المحال أن يرى الصحابة جهنم التي كان الكفار يرونها. كلا، بل كانوا يرون جنتهم في نفس ما يراه الكافرون جحيمًا. وهذا يعني أن الفعل الواحد كان يُري الكافرين جحيمًا ويُري المؤمنين جنةً. فعندما دخل الصحابة مكة منتصرين وممتطين جيادهم ما كان لهم أن يشعروا بالجحيم التي كان الكافرون يحترقون فيها. كان الحادث واحدا، ولكنه كان للكافرين نارًا وللصحابة جنة. إذًا، فالمراد من هذه الآية أن الجحيم ستُقرَّب إلى من يستوجبها، أما غيرهم فلن يراها أبدًا.

والمفهوم الثاني هو أن الرؤية هنا ليست مادية، إنما هي رؤية قلبية. ذلك أن الأشياء المادية يراها كل إنسان، فمثلاً إذا كانت ثمة نار مشتعلة فسيراها كل إنسان حتى المحروم من البصيرة الروحانية؛ أما الجحيم الروحانية فلا تُرى أحيانًا مع أنها تكون موجودة. وعليه فسيعني قوله تعالى ﴿لِمَنْ يَرَى﴾ – بالنسبة إلى هذه الدنيا – أن مَن له عينان سيرى هذه الجحيم، ومن ليس له عينان فلن يراها؛ لأن رؤية هذه الجحيم تتطلب بصيرة روحانية. فمثلاً حينما يبعث الله تعالى نبيًّا يزداد عدد المؤمنين به، وينقص عدد الكافرين به شيئًا فشيئًا، فيرى صاحب البصيرة أن يد التأييد الإلهي تعمل وراء فريق، والفريق الآخر محروم من نصرته وتأييده، ولكن الذي لم يُعطَ البصيرة

الروحانية يقول: هذا ليس بأمر ذي بال، وليس فيه أي معجزة، لأن الأمم تتقدم وتتأخر في الدنيا دائما. فبرغم أن الناس يرون أن هذا الفريق متجه إلى الجحيم، ولكن هذا الفريق نفسه لا يرى أنه متجه نحوها.

إذًا، فقوله تعالى ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ يعني أن صاحب البصيرة الروحانية وحده سيرى هذه الجحيم قبل أوانها. ورد في التاريخ أن النبي ﷺ لما دخل مكة فاتحًا أوصى أصحابه كثيرا أن لا يتصرفوا بكبرياء ولا خيلاء، ومع ذلك قال أحد القادة المسلمين اليوم ستُستحلّ الكعبة، وسنذيق الكافرين نكال فظائعهم التي صبّوها على المسلمين. فبلغ النبيَّ ﷺ ذلك، فعزل هذا القائد فورًا، وعيّن ابنَه مكانه. (السيرة النبوية للزيني الجزء الثاني: غزوة الفتح الأعظم ص ٦٢). وليس ذلك إلا لأن النبي ﷺ رأى أن الجحيم التي قد سُعِّرت للكافرين اليوم تفوق طاقتهم، فأراد أن يخفّفها عليهم قدر المستطاع، فأذّن في أهل مكة: مَن أغلق عليه بابه فهو آمن (السيرة لابن هشام، الجزء الرابع: ذكرُ الأسباب الموجبة للمسير إلى مكة). لقد أدرك النبي ﷺ أنهم لو خرجوا من بيوتهم فسيتأذّون جدًّا برؤية الجيش المسلم الزاحف في شوارع مكة.

ونظرًا إلى هذا المعنى الأخير، يشمل قوله تعالى ﴿لِمَنْ يَرَى﴾ المؤمنين والكافرين جميعًا، أما نظرًا إلى المعنى الأول فلا يشمل إلا الكافرين. الواقع أن الرؤية أنواع؛ منها الرؤية المادية الحسية، والرؤيا القلبية العرفانية. بالنسبة إلى الرؤية المادية فالمعنى أن الكافرين وحدهم سيرون هذه الجحيم كونهم يستوجبون دخولها، وبالنسبة للرؤية القلبية فالمعنى أن المؤمنين أيضا يرون هذه الجحيم بإدراكهم ما يعانيه الكافرون من عذاب.

وكما بيّنتُ من قبل أن من معاني قوله تعالى ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ أنها ستُكشف أو تُرى لمن يستوجبها، وهذا أيضًا يؤكد أن هذه الآية تتحدث عن الجحيم الدنيوية؛ لأن الجحيم الأخروية ستتراءى للجميع، فلا داعي أن يقال إنه سيراها من يستوجبها فقط.

فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٨﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٩﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤٠﴾

شرح الكلمات:

المأوى: اسمٌ للمكان الذي يأوي إليه. (المفردات)

التفسير: أي مَن تمرَّدَ وفضّل الحياة الدنيا غير مبالٍ بالآخرة سيرى اليوم الذي ستكون فيه الجحيم هي المأوى له.

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤١﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤٢﴾

التفسير: يمكن تفسير قوله تعالى ﴿مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ بمفهومين: أي مَن خافَ مقامَ ربه وعظمته، أو مَن خافَ وُقوفه أمام الله تعالى. والحق أن هذين الأمرين كليهما يجنّبان المرءَ الإثمَ؛ فإن الخوف من مقام الله وعظمته يجنّب المؤمنين من الطراز الأول ارتكابَ المعاصي، أما خوف الوقوف أمام الله تعالى كمجرم فيتسبب في نجاة المؤمنين العاديين. لا شك أن المجرم الكبير لا يبالي بأحد، ولكن المجرم العادي يخاف الوقوف والسؤال أمام الله تعالى. أما المؤمن الكبير فيخاف مقام الله وعظمته مدركًا أن عليه التقدم باستمرار، لأن ربه لا يرضى له بالدرجة الدنيا، بل يريد أن يظل عبده في الارتقاء في سلّم الحب والقرب منه تعالى.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾. ومن معاني الهوى: أماني النفس، والسقوط. وحيث إن الله ﷻ أعلى وأرفع، واتباع الإنسان أهواءَ نفسه يؤدي إلى سقوطه، فمن اتبع هوى النفس خرَّ وسقَط وابتعدَ عن الله تعالى كل البعد.

الغريب أن الله تعالى قد استعمل هنا، على سبيل التلازم، كلمةً تكشف حقيقة البُعْد عن الله تعالى، فإن الأهواء لا تعني أماني النفس فقط كما بَيّنتُ، بل تعني أيضًا الخرور

والسقوط، وهكذا قد بين الله تعالى أن اتباع أهواء النفس يُسقط الإنسان، وحيث إن الله تعالى أعلى وأرفع جدًّا، فيبتعد الإنسان عندها عن طرق قرب الله تعالى.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٣﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

الساعة: القيامةُ، وقيل: الوقتُ الذي تقوم فيه القيامة؛ عبارةٌ عن جزء قليل من النهار أو الليلِ؛ البعدُ؛ المشقّةُ؛ أيٌّ وقت من الليل أو النهار. ومن معاني الساعة: الهالكون، وهي في هذه الحالة جمعُ سائعٍ. (الأقرب)

مُرْساها: المرسى اسمُ مفعول أو ظرفٌ من أَرْسى السفينة: أوقفَها على الأنجر. وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي متى وقوعها. (الأقرب)

فيمَ أنت من ذكراها: أي ما علاقتُك بالحديث عن قيامها ووقوعها؟

التفسير: لقد أوضح الله تعالى هنا للكافرين أن تحديد موعد تحقُّق الأنباء ليس بضروري، إذ لا علاقة له بالقضية. ما دام العذاب سيحيط بكم حتمًا، فنـــزوله قبل يومين أو بعد يومين لا يقدح في النبأ. لا شك أن هناك حكمًا في تأخير تحقُّق النبوءة، وقد بيّنها الله تعالى في موضع آخر في القرآن، ومع ذلك لا يزال العدو يصرّ على قوله: يجب تحديد موعد تحقُّق النبوءة ويجب أن نُخبر بموعد حدوثها، فيقول الله تعالى لهم: ما لكم ولموعدها؟ عندما تتحقق النبوءة فكل واحد منكم سيرى أن ما قال الله قد تحقق تمامًا. ولو أُخبرتم بوقت تحققها، فماذا ينفعكم هذا؟

من المدهش أن القرآن يخبر هنا أن الكافرين لم يبرحوا يطالبون بتحديد موعد تحقُّق هذه الأنباء، فأجابهم الله تعالى أن ذلك ليس ضروريا؛ إذ لن ينفعكم هذا لأنكم هالكون حتمًا، سواء بعد أيام أو بعد سنوات.. ومع ذلك نجد المعارضين لا يزالون يقولون متى يأتي العذاب الذي تعدوننا به؟ لقد اعترض معارضو المسيح الموعود عليه السلام مرارًا بأنه يتنبأ بشكل مبهم ولا يحدد موعد تحقق الأنباء، مع أن الإجابة على هذا السؤال لن تُجديهم شيئًا. إنما النبأ الحقيقي الذي يدلي به النبي هو أنه سينتصر حتمًا،

وأن معارضيه سينهزمون حتمًا، ولا حاجة لتحديد موعد معين لتحقق هذه النبوءة، كما ليس فيها أدنى إبهام. إن المعارضين يرون بأم أعينهم أنهم سائرون إلى الهلاك، وأن أتباع النبي سائرون نحو النصر، ومع ذلك لا يزال المعارضون يقولون متى يتحقق هذا الوعد؟ فيرد الله عليهم ويقول: ما لكم ولموعده؟ إنكم هالكون حتمًا. لو قيل لكم إنكم ستهلكون بعد أربع سنين مثلا، فهل ينفعكم هذا شيئا؟ عندما يحيط بكم الهلاك سيتجلى لكم صدق النبوءة تلقائيا. فقال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾.. أي يسألك الناس يا محمد عن نبوءاتك المتعلقة بغلبة الإسلام وهلاك الكفر، ويقولون: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾.. أي أَخبِرْنا متى ترسو سفينتك الضخمة التي تأتي لتدمير الكفر؟ علمًا أن قولهم: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ تفخيم في ظاهره، ولكنه تحقير في حقيقته؛ إذ يقصدون به: متى تفجّر هذه الفُقاعة؟ فيردّ الله تعالى عليهم: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾.. أي ما لَكَ ولموعد هذه الساعة؟ إنها ما دامت ستوصلكم إلى الله تعالى فلا فرق لو تقدمتْ يومًا أو تأخرت، فالإصرار على تحديد موعدها خطأ واضح. إن الساعة ستأتي حتمًا لتأخذ الناس إلى الله تعالى؛ بعضهم مجرمين وبعضهم مؤمنين. فأين الإبهام في هذا الأمر العظيم؟ وما الحاجة إلى تحديد موعده؟ إننا نخبركم أنه سيأتي يومٌ يقف فيه الناس جميعًا أمام الله تعالى؛ بعضهم مجرمين وبعضهم مؤمنين.. بعضهم لينالوا الثواب، وبعضهم ليذوقوا العذاب، فهل تبقى بعد ذلك حاجة لتحديد موعد هذا النبأ العظيم؟ عندما يقع هذا الخبر العظيم ستعرفون صدقه تلقائيا.

إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٥﴾

التفسير: هذه الآية تكشف عبثية المطالبة بتحديد موعد وقوع الأنباء، حيث بين الله تعالى أنه لا فائدة في معرفة موعدها. إن الهدف الأساس هو أن يظهر جلال الله، وسيظهر يومًا ما، وستأخذكم تلك الساعة إلى الله تعالى. هذا هو الأمر المهم، وقد بيّناه. ما دمنا قد أنبأناكم – مثلاً – أن محمدًا ﷺ سيدخل مكة فاتحًا في يوم من الأيام، وسينتصر المسلمون ويهلك الكافرون، وينال هؤلاء العبيد المعرَّضين للاضطهاد عزةً

وكرامة، فما قيمة مطالبتكم تحديد موعد لوقوع هذا النبأ؛ وقولِكم أيحدث هذا غدًا أم بعد غد، هذه السنة أم بعدها؟

أما إذا اعتبرنا هذه الآية تتحدث عن الآخرة فالمعنى أن خيوط القدر بيد الله تعالى، وأن جميع الأسباب في قبضته وتصرفه، وسيُظهرها متى شاء، أي أن كل ما يحدث إنما يحدث بمشيئة الله وإرادته لا دخل للعباد فيه، فما دام كل شيء بيد الله تعالى فسوف يأتي بالآخرة متى شاء. وقد أوضح القرآن الكريم هذا الأمر في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾(لقمان:٣٥).. أي لا أحد سوى الله تعالى يعلم بموعد القيامة. وهذا ما أكده الله تعالى هنا بقوله ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾.. أي نحن الذين سنُحدث كل هذه التطورات، ولا دخل لكم فيها.

إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

شرح الكلمات:

مُنذِر: أنذرَه بالأمر: أعلمَه وحذّره من عواقبه قبل حلوله؛ خوَّفه في إبلاغه. (الأقرب)

عشيّة: العشيّة هو العَشِيُّ وهو: آخرُ النهار؛ وقيل: من صلاة المغرب إلى العَتمة. (الأقرب)

التفسير: أي إنما أنت مُحذِّرٌ لمن يخاف العذاب القادم، غير أننا نخبرهم أنه حين يجيء سيصبحون كأنهم لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها.. أي يوم يأتي ذلك العذاب ستبدو لهم حياتهم الماضية كلها كبضع ساعات. وهذا إشارة إلى شدة العذاب، لأن المرء إذا أصابه أذى شديدٌ بدتْ له ساعاتُ راحته قصيرةً جدًّا، وظنَّ أنه باقٍ في هذا الأذى دائمًا، و لم تتيسر له الراحة أبدًا. فإذا جاء ذلك العذاب سينسى الكافرون كلّ ما لهم من عظمة وشوكة، ويظنون أن زمن رقيهم لم يكن سوى سويعات.

وبالفعل ترى أن الناس حين يتحدثون عن تاريخ العرب يذكرون أحداث الجاهلية في بضع صفحات، أما تاريخهم ما بعد الإسلام فيستفيضون فيه ويملأون آلاف

الصفحات في بيان وقائع النبي ﷺ والمسلمين. فمع أن زمن الجاهلية أطول كثيرًا إلا أن أحداثها انكمشت عند ظهور الإسلام واختفت وقائعها عن الأعين، ولا يتعدى نظر الناظر إلى تاريخ العرب العهدَ الإسلامي إلى ما قبله. إذًا، فالله تعالى ينبه الكافرين هنا بأنه كما أن العشيّة أو الضحى زمن قصير جدًّا مقارنة بحياة الإنسان، كذلك سينمحي تاريخكم مقابل تاريخ الإسلام، وستصبح عظمتكم ومجدكم قصصًا تُروى، وينسى الناس أسماء أجدادكم وأعمالهم. وهذا يماثل إلهامًا للمسيح الموعود عليه السلام قال الله له فيه: "ينقطع آباؤك ويُبدَأ منك" (حقيقة الوحي، الخزائن الروحانية المجلد ٢٢ ص ٧٩).. أي سينقطع ذكر آبائك، ويُبدأ تاريخ أسرتك منك. وبالفعل ترى أن المرء حين يكتب تاريخ عائلته عليه السلام يُنهي ذكر آبائه جميعًا في بضع صفحات، ويبدأ التاريخ الأصلي بذكر المسيح الموعود عليه السلام. كان آباؤه ذوي عزة ونفوذ في زمنهم، ولكن الله تعالى قرر أن يبدأ تاريخ المستقبل من ذكر المسيح الموعود عليه السلام ويقطع ذكر آبائه. وهذا ما يؤكده الله تعالى بقوله ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾.. أي سنجعل تاريخهم ضئيلاً حقيرًا، ونعظّم محمدا ﷺ حتى يبدو تاريخ العرب كلهم مقابله ﷺ كعشية أو ضحاها.

وضمير المؤنث في ﴿ضحاها﴾ يعود إلى ﴿عشيّة﴾. وهنا ينشأ سؤال: إن الضحى يأتي قبل العشيّة، فلماذا قدّم الله هنا العشيّة على الضحى؟

سيقول الذين تنقصهم المعرفة الحقيقية بحكمة القرآن الكاملة وفصاحته التي تفوق تصوُّر البشر أن الله تعالى قد قال: ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ من أجل السجع؛ إذ انتهت الآيات السابقة بكلمات: ﴿مُرساها﴾، ﴿ذكراها﴾، ﴿منتهاها﴾ و﴿يخشاها﴾، ولكن هذا الجواب لا ينسجم مع فصاحة القرآن وإعجازه، لأنه لا يلتزم بالسجع والشكل على حساب المضمون. الواقع أن القرآن الكريم استخدم تعبير ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ للإشارة إلى قصر الوقت، كقول الكافرين في موضع آخر إنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا يومًا أو بعض يوم (المؤمنون:١١٣-١١٤). وقوله تعالى ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ يماثل هذا التعبير معنًى؛ ذلك لأن اليوم له معانٍ عديدة؛ منها اليوم المعروف الذي فيه ٢٤ ساعة، وأيضًا الفترة ما بين الصباح والمساء، وفي هذه الآيات سُميت الفترة ما بين

الصباح والمساء يوما. والوقت ما بين الصباح إلى المساء أطول مما هو ما بين الصباح والضحى. وحيث إن الله تعالى يريد هنا أن يبين أن كل ما يحققه الكافرون من تقدّم ورقيٍّ عبثٌ، لأن مصيرهم العقاب والعذاب، لذلك قد بيّن الله تعالى بقوله ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أن مصير منكري الإسلام سيكون على قسمين: فبعضهم يكون كمن قضى زمن رقيه وبلغ عشية عمره وهلك بتصدّيه للإسلام، وبعضهم يكون كمن لم يرَ زمن رقيه، بل هو لا يزال في بداية رقيه، وهؤلاء أيضا سيُدمَّرون في صدامهم مع الإسلام، وكأنهم لن يروا عشية عمرهم، بل يهلكون عند ضحى حياتهم القومية ليكونوا عبرة لمن اعتبر. وهذا هو المعنى نفسه الذي بيّنه أحد الشعراء باللغة الأردية:

پھول تو دو دن بہارِ جاں فزا دکھلا گئے
حسرت اُن غنچوں پہ ہے جو بن کھلے مرجھا گئے

أي قد تمتعت الأزهارُ ببهجتها وبهائها بضعة أيام، ولكن الحسرة على البراعم التي ذبلت قبل أن تتفتح.

إذًا، فعندما يُذكَر هلاك قوم فمن مقتضى البلاغة أن يُذكر الزمن الطويل قبل الزمن القصير، لذا يقول الله تعالى هنا إن بعضهم عاشوا حتى العشية، وبعضهم بلغوا الضحى. فلذلك تجد أن القرآن الكريم عندما ذكر هذا المعنى في مكان آخر قال ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. فثبت أن الله تعالى لم يقُل هنا عشية أو ضحاها مراعاةً للسجع، بل ليشير إلى قِصَر الفترة، لأن الفترة ما بين طلوع الشمس إلى الضحى أقصر من الفترة ما بين الضحى والمساء، وهذا يقتضي تقديم ذكر الأطول على الأقصر، لأن قِصر الفترة يدل على شدة العذاب، وطولها يدل على خفّته. والترتيب يقتضي هنا تقديم ذكر العذاب الأخفّ، وتأخير العذاب الأقسى.

باختصار، قد أشار الله تعالى هنا إلى ما سيحققه الإسلام من عظمة وازدهار، مبيّنًا أن زمن الكفر سيتقلص، وزمن الإسلام سيمتدّ حتى يبدو للكافرين زمنهم مقابل زمن رقي الإسلام كما تكون العشية أو ضحاها مقابل عمر الإنسان.